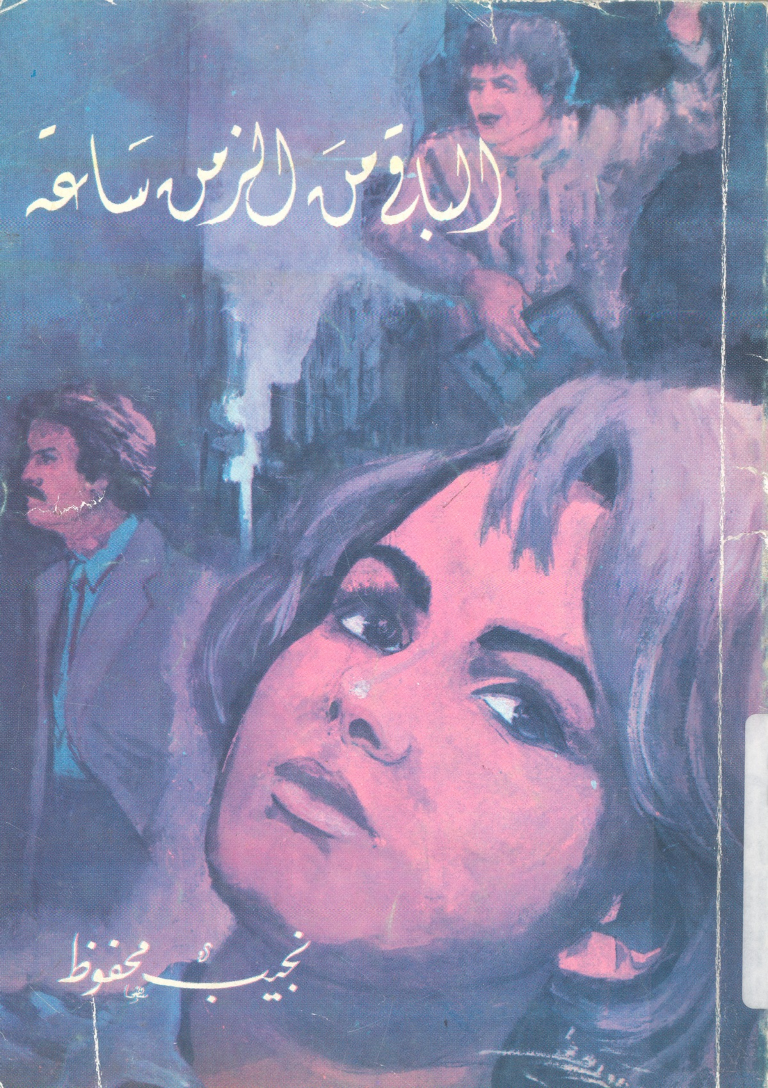

الباقي من الزمن ساعة
نجيب محفوظ

الباقي من الزمن ساعة

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الدكتورة / سمحة المهدي

جمهورية مصر العربية

مطبوعات مكتبة مصر

الباقي من الزمن ساعة

تاليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

دار مصر للطباعة

الاسكندرية

٣٧ شارع كامل صدقي

للصورة التذكارية تعود كلما نبض قلبها بالحنين . حجرة المعيشة تزدان جدرانها الخضراء بثلاث لوحات فى أطر مموهة بالذهب . البسملة فى الصدر ، الشهادة الابتدائية القديمة بالجناح الأيمن ، صورة الرحلة التذكارية بالجناح الأيسر . نسيت أشياء وأشياء ولكنها لم تنس عام ١٩٣٦ تاريخ الصورة ، ففى ذلك التاريخ كتب الخلود للحظة زمانية من تاريخ أسرتها وهى تمرح فوق كليم مفروش فوق الأعشاب بحديقة القناطر الخيرية . فى الوسط جلس حامد برهان رب الأسرة ممدود الساقين ممتلئا بالعافية بدينا وسيم الوجه ذا سمرة عميقة ، والى يمينه جلست هى ــ سنية المهدى ــ متربعة مغطية حجرها وساقيها بشال عريض متألقة الوجه بملامحها الدقيقة الصغيرة ، أما الى يساره فجلست كوثر البكرية بجمالها المتواضع ونظرتها الوديعة ، يليها محمد فى الجلسة كما يليها فى العمر مثل أبيه فى التكوين والشكل ، تليه منيرة بجمالها الفائق ونظرتها المتوهجة . كان الأب فى الخمسين والأم فى

الأربعين والاخوة يناهزون البلوغ . وكان الجميع يبتسمون ، تحبو فوق وجوههم فرحة الرحلة والسلام ، وبين أيديهم تقوم قوارير المياه الغازية وأطباق ورقية ملئت بالسندوتشات والموز والبرتقال . على حين نهضت فى الخلفية هضــبة متدرجة معشوشبة وأشجار منثورة . تنطلق فيما وراءها منـــارات القناطر وجماعات من المتنزهين • تجللتها ــ الصورة ــ عذوبة شاملة ولم يظهر فيها أثر للزمن • غير أن الزمن لم يتوقف لحظة واحدة خارج الصورة • ومن ضمن ما قضى به ألا يبقى فى بيت الأسرة اليوم الا مالكته سنية المهدى وكبرى ذريتها كوثر • وهو بيت مسيح . مكون من دور واحد يعلو فوق الأرض بدرجات خمس . وحديقته تمتد من جانبه الجنوبى ، مساحتها نصف فدان . تغنت عهدا بالازدهار ، وكابدت عهودا من الاضمحلال والوحشة • وضخامة البيت والحديقة أثر من آثار حلوان القديمة . الرخيصة النائية . المغموسة فى السكينة والتأمل ، التياهة بمياهها المعدنية وحماماتها الكبريتية وحديقتها اليابانية . مصحة الأعصاب المتوترة والمفاصل المتوعكة والصدور المتهرئة والعزلة الغافية • وجميع الدور بشارع ابن حوقل متشابهة ــ ما عدا البيت المواجه لبيت الأسرة الذى بيع فى أثناء الحرب العظمى الثانية لتشيد مكانه عمارة جديدة ــ ولكن بيت المهدية يتميز بطلائه الأخضر ، وهو طلاء أغلب

حجراته ذوات الأسقف العالية ، وهو لون أغطية المقاعد بحجرة المعيشة ، والاصرار عليه يعكس ولع المرأة به ، ويشير أيضا الى ولعها بالبيت نفسه الذى وثقت بينهما محبة خلقت للأبناء والأحفاد مشكلة تعذر حلها فى حينها • ومشيد البيت أبوها عبد الله المهدى ، وكان فى آخر أطوار حياته فلاحا من الملاك المتوسطين ، ولما اجتاحه الروماتزم نصح بالاقامة فى حلوان مدينة الصحة والجفاف فابتاع أرضا وأقام البيت تاركا أرضه لابنه البكرى ، مهاجرا بزوجته ووليدته سنية • ووزع الرجل أملاكه بالتراضى بين ابنه وابنته جاعلا البيت فى حصتها فلعب دورا ذا شأن فى حياتها ، اذ نوهت به الخاطبة وهى تزكى سنية عند أم حامد برهان فكان ضمن مغريات اختيارها • لكن سنية كانت على درجة من الوسامة المقبولة ، ونالت أيضا الابتدائية ، واعترف لها بالذكاء وبأنها كانت خليقة باتمام تعليمها لولا اصرار الأب على حجبها • وكم حزنت لقراره ، وكم سفحت من دموع احتجاجا عليه ، ولذلك فرغم مهمتها كربة بيت وأم واظبت على قراءة الصحف والمجلات ووسعت مداركها حتى بلغت درجة من النضج غير معهودة سندت بها حدسها الروحى وأحلامها العجيبة • ولعلها كانت المرأة الوحيدة فى شارع ابن حوقل التى تمسك دفتر حسابات لميزانية الأسرة كما كانت تراسل أخاها بالخطابات المطولة ،

ربما رغبة فى التعبير واثبات مقدرتها عليه • وعلى حبها القديم العميق لزوجها حامد برهان شعرت فى أعماقها بتفوقها عليه ؛ ذكاء وعقلا . فضلا عن أنه لم يحصل الا على الابتدائية وان التحق بعد ذلك بمدرسة التلغراف وتخرج فيها • يضاف الى ذلك أنه لا يعرف عن سلسلته العائلية الا جدا واحدا ولا يكاد يعرف عنه أكثر من اسمه ؛ أما هى فتعرف كثرة من الجدود وان لم تشر اليهم الا اشارات عابرة وفى مناسبات نادرة ؛ وكبر حظ جدها لأبيها من الذكر بسبب نقطة التحـول التى أحدثها فى حياته عندما دخل الاسلام بعدما كان قبطيا من صلب أقباط • وفى ذلك قالت سنية ذات يوم لحامد برهان ضاحكة :

ــ تاريخى غير راكد •

وكان حامد برهان ــ مثل زوجه ــ محبا للفخر فجرى وراء المتاح من أسبابه فى حياته البسيطة المتواضـعة . ملحا على اثبات رجولته . ودون اغفال للحقيقة الساطعة وهى أنها مالكة البيت الكبير . وأنها مدبرته الحكيمة . وأنها مربية الأبناء الرشيدة الواعية . فضلا عن أنها خالقة الجو السعيد الذى نعم به طويلا • ومن آى حبه للفخر أيضا حومانه الملح حول الانجاز السياسى الوحيد فى حياته . وهو تحريضه على اضراب الموظفين فى مطلع ثورة ١٩١٩ . فهو يرويه

بتفاصيله كلما سنحت فرصة ، علما بأنه الفعل الوحيد في حياته السياسية التي لم يبق له منها سوى حب قلبي عميق للوفد لا يتجلى بصورة عملية الا فى الظروف النادرة التي يسمح فيها باجراء انتخابات حرة بين الأحزاب • وكان زوجا مثاليا في أكثر من ناحية . فهو مولع بزوجه وأبنائه ، وهو فحل في الرجال ، وهو بريء من الأدواء التي تتطفل على ميزانية موظف صغير مثله فلا يسكر ولا يدخن ولا يفسق بعينيه ، حتى سهرته يمضيها مع اخوانه فى حجرة الاستقبال شتاء أو الفراندا بقية العام ، وهم من أهل حلوان مثله : جعفر ابراهيم ناظر على المعاش ، خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى ، حسن علما مهندس مبان ، راضى أبو العزم مدرس علوم ، تنطوى لياليهم فى السمر ولعب الطاولة وحديث السياسة مرددين نغمة واحدة صادرة عن لحن وفدى أصيل فلا نزاع ولا خصام — وعرف حامد برهان بالنظافة والأناقة والتدين السمح اليســير الذى يعبق به جو الأسرة • وجبر الله خاطر الوالدين بمحمد ومنيرة فشقا طريقهما فى التعليم بنجاح واعد ، خاصة منيرة التى اختصت بالذكاء والجمال معا ، الا أن كوثر تمخضت عن مشكلة مثيرة للقلق ، فهى لم تظهر ميلا للتعليم ولا توفيقا فيه . وانجذبت بطبعها نحو التدين وشئون البيت ، فاضطرت الى ملازمة البيت بعد سقوط عامين متتاليين فى المرحلة الثانوية • يومها قالت سنية لحامد :

ــ ست البيت غير مطلوبة فى الزمان •

وتذكر الرجل حظها المتواضع من الجمال فغلبه الأسى ولكنه قال :

ــ يوجد أيضا الحظ وهو لا قانون له !

وكان للأسرة حياتها الاجتماعية المشتركة ، تجد فى الرحلة سرورها ، فيوم للحديقة اليابانيـــة ، ويوم للقناطر الخيرية ، ويوم لدار الآثار ، رغم أنها كانت أيام أزمة عالميـــة طاحنة ، غير أن الموظفين ذوى المرتبات الثابتة وجـــدوا يسرا فى ظل الكساد وهبوط الأسعار ، فاقتلعت العاصفة الهوجاء كل قائم ولاذت الأعشاب بالأمان فمرحت وهزجت بالأغانى • وكان حامد برهان يمضى بأسرته دون حجاب ، غير مبال بالقيـــل والقال ، فلم يمل الى التزمت أبدا ، وكانت وراءه امرأة تحسن التربية ، وتعطى مثالا فى أداء الفرائض والسلوك الطيب • وتمضى الأيام فلا يتقدم أحد لطلب يد كوثر وهى الوحيـــدة التى لا غاية لها الا الزواج • وتبسط سنية راحتيهـــا بالدعاء عقب كل صلاة ، أو يتهلل وجههـــا بالبشر أحيانا وهى تقول لحامد :

ــ رأيت حلما سيكون له شأن !

أو تكلف أم سيد بقراءة الفنجان وتصغى الى تأويلاتها

الوردية فبنتعش حامد بالأمل يهدهد به همه المطـــارد •
وما يلبث أن ينسى همه الى حين وهو يتابع أنباء المظاهرات ، والصراع حول دستور ١٩٢٣ ، والسعى نحو ايجاد وحدة قومية لمواجهة الموقف • ويتمخض الجهد والدم عن حدث غير عادى فتعقد معاهدة ١٩٣٦ • ليلتها ثمل حامد برهان بالنصر وقال للسمار :

ـ كلل جهاد الوفد أخيرا بالفوز المبين •

★★★

أجل كان ثمة آراء معارضة رددها الأستاذ راضى أبو العزم مدرس العلوم معتذرا بقوله « ناقل الكفر ليس بكافر » ، وكانت وردت قبل ذلك على لسان محمد ومنيرة نقلا عما يسمعان فى المدرسة • غير أنه لم يكن لها أثر يذكر فى الأسرة فسنية وفدية مثل زوجها ومحمد وفدى أيضا ، حتى منيرة تعد وفدية بلا حماس ، أما كوثر فلا تهتم الا بما يدور فى باطنها • أما فى جلسة السمر فكان الوفد متسلطا دون شريك فتساءل جعفر ابراهيم :

ـ كيف يتوقعون نتيجة أفضل من هذه ؟

فقال حسن علما :

ـ المعاهدة ثمرة صراع مرير بين امبراطورية طاغية من

ناحية وبلد أعزل من ناحية أخــرى ؛ فهى مشرفة لا ريب فى ذلك ..

فقال حامد برهان :

ـ على من لا يقتنع أن يزحف على العدو بجيته !

فقال خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى :

ـ انتهت أيام اللعنات وسوف يحكم الوفد الى الأبد ..

ولكن بدا أن أيام اللعنات لا تريد أن تنتهى فقد انفجر صراع جديد بين الوفد والملك الجديد ، حول المعركة من معركة موجهة نحو الفقر والجهل والمرض الى المعركة التقليدية حول الدستور والحكم الديمقراطى . واذا بالوفد يطرد والأقليات تلعب دورا ديموقراطيا زائفا كغطاء متهتك للاستبداد الملكى . تبادل الأصدقاء نظرات أسى مشتعل بالغضب . أملوا أن يغضب الشعب غضبة من غضباته الماضية ولكنه آثر أن ينتقل من مكانه العريق فوق خشبة المسرح الى مقاعد المتفرجين حتى تساءل حامد برهان :

ـ من أين جاءنا هذا الحظ الأسود ؟ !

واسترقت سنية نظرة الى كوثر وقالت لنفسها .

ـ مثل حظك تماما يا ابنتى !

واكفهر جو العالم كلل وتطاير منه الشرر ثم انحسر قناعه الأصفر عن حرب عالمية جديدة . وأكثر من صوت قال :

ــ ايطاليا فى ليبيا على بعد شبر منا !

وكان محمد قد التحق بكلية الحقوق . ومنيرة على وشك الالتحاق بالآداب . أما كوثر فما زالت تنتظر • ومحمد ــ مثل أبيه ــ انصهر بهزيمة الوفد وأنباء المعارك . وجذبت نظره ذات يوم لافتة متبتة على قضبان شرفة شقة بشارع سعفان مسجل عليها بالخط الفارسي « الاخوان المسلمون » فدعاه حب الاستطلاع والتوتر الى اقتحام الشقة • ومضى يختلف اليها من حين الى حين وينوه بما يلقى عليه فيها بين أسرته ؛ حتى قال له حامد برهان :

ــ حسبك ، انى غير مرتاح لذلك ••

فدافع الشاب عن وجهة نظره دفاعا بريئا ولكن اباه قال :

ــ أنت وفدى ، وأى تجمع آخر ما هو الا منافس للوفد •

فقال محمد باصرار :

ولم يطرأ عليه فى تلك الفترة من تغيير الا أن أضاف الى مجال اطلاعه بعض الكتب الدينية ، على أن كوثر استغرقتها العبادة أكثر منه وان عكست عيناها الوديعتان نظرة أسى دائم • وضاعف من حرج الأسرة أن منيرة ــ وهى تتشرنب للجامعة ــ تقدم لطلب يدها مدير عام بالسكة الحديد فى الخامسة والأربعين من عمره • لا شك أن « درجته » فتنت حامد برهان ، ولكنه ــ مثل سنية ــ توجع لحال كوثر • غير

آنه لم يكن بد من عرض الموضوع على منيرة التى أدهشتهم بقولها الحاسم :

ــ لا أوافق ••

فقال لها محمد :

ــ يستحسن أن يسبق أى قرار بالتفكير المناسب •

فقالت بصراحة :

ــ لا داعى لذلك على الاطلاق •

وارتاح الوالدان فى أعماقهما وان تظاهرا بغير ذلك • ولم يكن القهر يلعب دورا فى الأسرة . وكان الأبناء يحظون بنعمة غير معهودة من الحرية والصراحة • على أن منيرة لم ترفض الرجل لفارق السن فقط ، فالحقيقة أنهــا كانت واقعة فى حب • لم يفطن أحد الى حبها ، ولا أمها التى ترى بروحها أحيانا بالاضافة الى عينيها • وكان حبها مشكلة • أحبت شابا من حلوان تبين لها أنها تكبره بسبعة أعوام ! • كان طالبا بالمرحلة الثانوية ، كثير السقوط ولكنه ذو مظهر خادع • رأته أول ما رأته فى الحديقة اليابانية فاتسعت عيناه مرسلة دهشة ذاهلة باسمة تحية للحسن الرائق ، وجلس قبالتها فى القطار أو لعله تعمد الجلوس قبالتها وراح يسترق النظر طيلة الطريق الى القاهرة • كان ذا مظهر يكبر سنه بكثير ، مترامى الأبعاد مبادرا للرجولة قبل أوانها فظنته موظفــا

أو طالبا فى القمة ، وكان الى ذلك فحل الملامح والصوت • وراح يتابعها باصرار وشغف حتى غزاها بلطف وثبات • وجد قلبا يخفق بنظرة متوثبة ، متعطشة لأول قطرة ماء كى تتفتح أكمامها وتنبثق ألوانها الضاحكة • هكذا تسلط على فؤادها فاستسلمت للنداء المطرب حالمة بسعادة مشرقة • وعند لحظة فريدة يتصارع فيها الحياء والمغامرة ردت آخر تحياته أمام تمثال بوذا الغافى فى سلام بالحديقة اليابانية ، فقال متنهدا :

ـ أخيرا ! •• سامحك الله ••

وفى ارتباكها سألته متلعثمة :

ـ ماذا تريد ؟

فقال بهدوء مغتصب :

ـ ليس عندى أكثر مما يدل عليه حالى •

فعضت على شفتيها لتئد ابتسامة خائنة فقال برقة :

ـ ليس وراء الحب شىء ••

قالت لنفسها ما أصدقه • وتلاقيا مرات فى الجنفواز على مبعدة يسيرة من الجامعة ليزدادا ببعضهما تعارفا • كان ثمة تشابه بين أسرتيهما فأبوه ناظر مدرسة ابتدائى ، له أخت متزوجة وأخ ضابط بالجيش ، أسمه سليمان بهجت • ولما عالنها بسنه وصفه المدرسى تلقت لطمة مباغتة لم تتوقعها • كانت تشارف مرحلتها الجامعية بقسم اللغة الانجليزية ، وربما

توظفت وهو يلتحق بالجامعة ةأى مهزلة وأى خدعة • اضطرب ميزان عقلها ولكن قلبها صمد صمود العاشقين ، طرحا العواقب جانبا • ولاحظ سليمان وجومها ولم تغب عنه أسبابه فقال :

ــ فى الحب لا أهمية للمشكلات السطحية •

فتساءلت بحيرة :

ــ أهى سطحية حقا ؟

ــ بلا شك ، علينا أن نصر على حبنا حتى نتزوج •

فقالت بسرور خفى :

ــ انك جاد ولى فيك كل الثقة ، ولكنى أسألك مهلة للتفكير لصالح كلينا ••

فقال بيقين :

ــ انى أعرف صالحى تماما (ثم ضاحكا) ولن أسمح لك بالتراجع ••

ولم تجد فى أسرتها من تفضى اليه بسرها سوى أمها • اقتحمت غرفتها الخضراء عقب صلاة العصر راذ الباب وراءها وجلست قائلة :

ــ اليك حكايتى يا ماما ••

لما أدركت أنها حكاية خطوبة نور قلبها بالسرور ، ولكنه سرعان ما انطفأ لدى طرح المشكلة • وتفرست فى وجهها فاستشفت عباها الدفين وراء قناع الحيرة فأدركها الجزع •

قالت لنفسها ان حظ كوثر سيىء أما جوهرة الأسرة فلا يجوز أن يسوء لها حظ . قالت بثبات :

ــ مشروع فاشل ولا خير فيه .

فرمقتها منيرة بنظرة كئيبة فواصلت :

ــ الرجل الأكبر فى السن مقبول ألف مرة أكثر من المرأة الأكبر ، حذار يا منيرة ، ما هو الا عبث صبى لا يوثق به وأنت رشيدة مثقفة ..

فلاذت بالصمت الذى أدركت الأم معناه فقالت بقلق :

ــ الناس يحبون ليسعدوا لا ليجعلوا من حياتهم نادرة يتندر بها . لن يمنعك أحد مما تريدين ، أنت حرة تماما فى اتخاذ قرارك ولكنى أحذرك ، فالمرأة تمضى الى الشيخوخة أسرع من الرجل ..

فتمتمت بغموض :

ــ أشكرك يا ماما ..

فقالت برجاء :

ــ لا داعى للعجلة ، فكرى على مهل ، دعى الأمر معلقا حتى يئين أوان الزواج ثم انظرى ماذا يبقى منه .

فقالت منيرة وهى مستغرقة بالحيرة :

ــ حل موفق يا ماما ..

ــ عظيم ، وليكن الأمر سرا حرصا على الكرامة ..

ولكنها لم تعتد أن تخفى عن حامد برهان أمرا ذا بال فأشركته فى همها قبل انتقاله الى مجلس السمار • وفاق تأثره بالسر تأثرها اذ كان عاطفيا أكثر منها أو كان دونها فى ضبط النفس ، قال بنبرة المتشكى :

ــ أى حظ يا ابنتى ! •• انك درة التاج فلم تبتلين بهذه التجربة ؟

وتفكر مليا ثم قال :

ــ انه مشروع فاشل ولكنه خليق بأن يقوم عثرة فى سبيل من يطلب يدها ••

ولم تر سنية حلما ذا معنى ، وضربت تأويلات أم سيد للفنجان فى آفاق بعيدة عن الموضوع • أما سليمان بهجت فقد عدل عن رغبته الملحة فى اعلان الخطوبة ، قانعا بعلاقة أقرب الى الصداقة مورست فى مودة وتحفظ وصينت بالصبر الطويل • على أن سرا بهذه الخطورة لا يمكن أن يبقى سرا طويلا فما دام توجد رائحة نفاذة وجو ذو قابلية لسريان الرائحة فلابد للرائحة من أن تنتشر • انكشف فى بيت سليمان بهجت وقال له أخوه الضابط :

ــ أحسنت الاختيار •

وكثرة من زميلات كوثر بالكلية عرفنه ، وزحف أخيرا على شارع ابن حوقل فنوقش فى مجلس السمار ، وبذلك عرف

القاصي والدانى أن كريمة حامد برهان الجميلة « محجوزة » فلم يتقدم أحد لبخطبها ، مثلها مثل أختها كوثر التى طال بها الانتظار وتقدم بها العمر • وكانت أيام حرب وبلاء ، واحتلت الوفيات الصفحات الأولى من الصحف ولكن على نطاق العالم والتهم الخراب العواصم الزاهرة ودنا الخطر من مصر حتى ترددت أنفاسه فى القاهرة والاسكندرية فقال حامد برهان :

ــ من راقب بلوى العالم هانت عليه بلواه ••

واختل ميزان المعيشة فتوارت الأسعار القديمة الى الأبد وانهمرت الثروات على أناس فلم يبق فى القعر الا الموظفون فتساءلت سنية :

ــ ما جدوى امساك دفتر لميزانية وهمية ؟ !

ولولا عودة الوفد للحكم عقب أزمة خطيرة وتقريره علاوة الغلاء لهلك الموظفون • ولم يزعزع الحــدث ايمان حامد برهان بوفديته ، بل رقص السمار فرحا وشماتة بالملك • وقالت منيرة :

ــ انه شىء بشع لا يصدق •

وقال محمد لأبيه :

ــ ما أفظع ما يقال !

فقال حامد برهان بثقة :

ـــ كل قول جدير أن يتحطم على صخرة صلدة هي وطنية مصطفى النحاس •

فهزت سنية رأسها باسمة وتمتمت :

ـــ نطقت بالحق •

وتمضي الأحداث ، ويميل مؤشر النصر الى الناحيـــة الأخرى • ويقال الوفد كالعادة من الحكم ، وبعد عامين يحال حامد برهان الى المعاش لبلوغه السن القــانونية ، شـــد ما انقبض صدره حتى ساوره شعور بأنه يموت قبل الموت • لدى رجوعه الى حلوان نازعا معطف الوظيفة لأول مرة اجتاحته كآبة ثقيلة ، وداخله احساس بالخجل كأنما ارتكب اثما • قال لنفسه :

ـــ ما زلت في تمام الصحة والعافية •

ورسم لنفسه ـــ وهو قابع في قطـــار حلوان ـــ خطة يتحدى بها قرار الحكومة • أن يستيقظ في ميعاده المبكر • أن يتمشى ما بين الصحراء والحديقة اليابانية كل صـــباح مغترفا من هواء حلوان الجاف • أن يواظب على الارتواء من المياه المعدنية • أن يعنى بحديقة البيت ما وسعته طاقته المالية المحدودة • وتلقته سنية باسمة ، دعت له بطول العمر ، مطاردة أفكارا كئيبه تطن في باطنها كالذباب • عطفت عليه ، رأت وجومه وراء ضحكته المفتعلة ، قاسمته الانفعال بالزمن

والخوف من المجهول ، بالاضافة الى همومها كربة بيت تفعل المستحيل للاحتفاظ بالحد الأدنى فى مواجهة حياة يشـــتد عسرها فى بطء وثبات . وحمدت الله على الفرج المنتظر بتخرج محمد ثم منيرة . قالت فى لحظة تأمل :

ــ أشعلوا الحرب وذهبوا وعلينا أن ندفع الثمن ..

واستوعب الغذاء والكساء كل شىء ولكن ألا يحتاج هذا البيت الكبير الى ترميم وطلاء ؟ .. وهذه الحديقة التى عقمت أشجارها الباقية . وذبلت شجيرات أزهارها ، وشغلت الأرض الرملية أكثر سطحها ألا تحتاج الى بعث ؟ .. أين هى من ذلك كله ؟ ! . وهى حتى متى تحمل أعباء البيت ولا معين لها الا فتاة منكسرة القلب وخادم تماثلها فى السن ضئيلة المهارة لا تحسن الا قراءة الفنجان ونادرا ما تصدق لها قراءة ؟ . ولكن الهموم تتداوى بالهموم أحيانا ، فقد اقتحم البيت هم فى صورة فرح باسم . أجل أخيرا جاء رجل يطلب يد كوثر ! . كان خليل الدرس ــ أحد السمار ــ وهو الخاطبة ! ، وكان العريس الوجيه نعمان الرشيدى الذى يعمل الرجل وكيلا لدائرته . قال خليل الدرس لحامد برهان :

ــ رجل ولا كل الرجال .

ثم مبادرا قبل أن تلعب الامال بقلب حامد :

ــ حقا لم يتعلم ولكن ما حاجته الى التعليم ؟ ، وهو فى

الستين ولكنه بحظى بصحة ابن الثلاثين ، له أبناء ثلاثة ولكنهم موظفون ومتزوجون ، يملك أرضا وعمارات وأموالا سائلة . يقيم فى فيللا أنيقة بشارع الزقازيق بمصر الجـديدة . ولما ماتت زوجه منذ عام غشيته وحدة لم يألفها فضاق بها وغمرته كآبة ثقيلة حتى اقترحت عليه فكرة الزواج فرحب بها بحماس فاق تقديرى بكثير فطلبت الى زوجتى أن تدعو ست سنية وكوثر لزيارة ، ودعوته من ناحيتى ، ويسرت له رؤيتها فى الحضور والانصراف فسر جدا وأمرنى أن أتم السعى ، وها أنا أفى بما تعهدت به ..

هكذا ذابت هموم الحياة اليومية واستأثر المشروع الجديد بالأفئدة . أسكتوا الراديو فى حجرة المعيشة ، وأفضى حامد برهان بما لديه ، ثم قال :

ـ هذا هو العريس فما الرأى ؟

همت كوثر بالانسحاب ولكن حامد برهان أمسك بساعدها وجذبها الى جانبه بحنان قائلا :

ـ هنا مكانك .

فقال محمد ضاحكا :

ـ من حسن الحظ أن الحكومة لا تتدخل فى هذه الشئون .

وتساءلت سنية نفسها لم يتعثر حظ ابنتيها فلا يعرف الطريق المألوف ؟ . وقالت :

ـ لنترك الأمر لصاحبة الشأن ••

فقال حامد برهان :

ـ طبعا •• طبعا •• ولكن لا بأس من ابداء الرأى مساعدة لها : الرجل ثرى ، والمال زينة الحياة الدنيا !

وهم محمد بتكملة الآية ولكنه عدل عن ذلك • كان ينظر الى بقاء أخته فى البيت الكبير بلا زواج ولا علم ولا عمل بقلق شديد • قال :

ـ فرصة لا يصح الاستهانة بها •

فقالت منيرة :

ـ أوافق على رأى كوثر دون قيد أو شرط ••

فقال لها أبوها :

ـ لم تقولى شيئا ••

فقالت باصرار :

ـ قلت كل شىء •

ونظر حامد برهان نحو سنية وهى متربعة فوق الكنبة فتمتمت :

ـ رجل مقبول من بعض النواحى ولكنى تمنيت لها حظا أفضل ••

وهربت بوجهها من نظرتهم فاستقرت عيناها على الصورة التذكارية • وقالت كوثر لنفسها انهم يميلون للموافقة • وهى

أيضا مالت اليها منذ اللحظة الأولى • فهذا الرجل هو أول رجل يتقدم • وهى تغوص فى السادسة والعشرين تكتنفها أحوال تدعو الى اليأس • وهى تثير العطف حتى كرهته • وباتت تخجل من لقاء الزائرات • ولما مسـها أبوها برقة متسائلا :

ــ وأنت يا كوثر ؟

أحنت رأسها وغمغمت بصوت لم يسمع :

ــ موافقة •

وانتهت الجلسة بسلام ، لكن ثمة شعور بالذنب طاردهم قاوموه بالشعارات الطيبة • وعندما خلا حامد برهان بسنية عقب انصراف السمار قال :

ــ بارك الجميع قرارنا ••

نظرت اليه فهالها أن ترى عينيه دامعتين • لم تدهش لما تعلمه من سخاء عينيه اذا مس وتر حميم فى قلبه ، أما هى فتبكى فى الداخل • وسألته بأسى :

ــ لم تبكى يا رجل ؟

فتنهد قائلا :

ــ من العجز وسوء الحظ •

عنى عجزه المالى وسوء حظ ابنته • وهو كان يرى أكثر مما يتصور من حوله • لاحظ بقلب متغضن انزواء كوثر ،

أسى نظرتها ، معاناتها للمراهقة ، اغراقها اليائس فى العبادة ، تطوعها لخدمة اخوتها فى استسلام كامل ، فدفعه ذلك كله الى مواجهة عجزه . ماذا فعل من أجلها ؟ . ماذا يملك من المغريات ؟ . وكم قسا عليها أيام الدراسة مصرا على تحميلها ما يفوق طاقتها رغم أنه كان مثلها فى معاناة التعليم ، والا لشق لنفسه طريقا آخر أبعث للآمال له واذريته . وسأل زوجته ومرشدته :

ـ ما العمل الآن ؟

استخرجت من الجملة القصيرة مضمونها الخفى فقالت :

ـ عندى مجوهرات لا بأس بها ..

فقال بذل :

ـ أحاول أن أقترض أيضا ؟

فقالت بضيق :

ـ لن تجد ضامنا ، ولا ضرورة لذلك .

على أن السيد الوجيه نعمان الرشيدى جعل من العسر يسرا . نشط نشاطا كبيرا فأهدى أثاث فيلته الى أبنائه ، وأعاد تأثيثها على أحدث طراز ، وفى مقابل ذلك اتفق على صداق ومؤخر صداق رمزيين . وارتاحت الأسرة فى الأعماق لذلك ولكن تجلى طفحه فى الوجوه فى صورة كبرياء جريح . لذلك غالت الأم فى تزويد كريمتها بالثياب أشكالا وألوانا

وأغدقت عليها هدايا ثمينة أساور ذهبية وقرطا ماسيا وساعة أثرية • وبدا الوجيه حريصا على الوقت فتحدد يوم لكتب الكتاب فى البيت الكبير شهده الأصدقاء ولم يحضره أحد من أبناء الوجيه معلنين بذلك مقاطعتهم التى تواصلت الى الأبد • ومضى الوجيه بعروسه فى سيارته المرسيدس البيضاء مودعا ببسمات متلألئة بالدموع كرمز للفرح والأسى معا • وعقب الزيارة الأولى التى قامت بها الأسرة لفيللا شارع الزقازيق قال حامد برهان :

ــ كوثر سعيدة والحمد لله •

كانت سعيدة حقا ، وسرعان ما بادلت زوجها حبا بحب • كان حبا حييا هادئا ولكن بالقياس اليهـا كان الحب كله • وما لبثت أن بشرتهم بمقـدم مخلوق مجهـول من الغيب فانغرست البشاشة فى قلب سنية المهـدى طارحة ورودا وأزهارا • وأضفت التسريحة الجديدة على وجه كوثر أنوثة • وأكسبها الزواق ملاحة ، وأسبغت عليها الثياب الفاخرة جلالا وسؤددا وان لم تهمل يوما سجادة الصلاة • وأخفت عن أمها هموما صغيرة تسللت الى وجدانها من جراء محاولات مستميتة بذلها نعمان الرشيدى ليقنعها باحتساء القليل من الويسكى ، لاجئا الى اصدار فتاوى شخصية لا أساس لها بأن الشرب الشرعى حلال ، حتى يئس فقنع بالمتاح • وما أن رفع حامد

برهان رأسه عن هم كوثر حتى ركز عينيه على العمارة الجديدة التى استوت قائمة فى مواجهة بيته . بدأ الهدم ورمى الأساس من سنوات ، وتوقف العمل وقتا غير قصير لأسباب مجهولة ، ثم استؤنف حتى اكتملت بقاعدتها الواسعة وقامتها المديدة . أسف حامد لذلك غاية الأسف ، وتحسر على زوال حديقة البيت الأصلى وأن يقوم مقامها بناء فيحجب ما يحجب من منظر مأنوس ويمنع ما يمنع من هواء طلق . وانقض على العمارة سكان جدد فاق عددهم سكان « ابن حوقل » جميعا ، لا يعرف بعضهم بعضا ولا يتحمسون لمعرفة أحد . قال جعفر ابراهيم :

ـ هذا مصير بيوتنا الكبيرة القديمة ..

فتساءل حامد برهان :

ـ ولكن ما حاوان اذا اغتصب هدوءها الأبدى ؟ !

وخيل اليه أن يوذا سينتشله من تأملاته العميقة محتجا ثم يرحل وراء الهدوء الى أعماق الصحراء .

ولم تكن العمارة بالهم الوحيد الذى طرأ فقد تدفق طوفان من ميدان السياسة دافعا بين يديه مظاهرات من الطلبة والعمال مطالبين باستقلال حقيقى يكافىء ما بذلته مصر من تضحيات وخدمات فى أثناء الحرب . وكالعادة غلبت السياسة على السمر وانهمك حامد برهان الوفدى العريق فى همومها . وقال :

ــ لو بقى مصطفى النحاس فى الحــكم لطالب الانجليز بجزاء تأييده لهم فى وقت الهزيمة •

غير أن همومه لم تحل بينه وبين رؤية ساكنة جديدة فى الدور الرابع من العمارة الجــديدة • كان يتمشى فى حديقته الموحشة مصارعا الفراغ الجديد المهيمن على حياته فحانت منه التفاتة فرآها تتمشى فى مطلع خريف • لعلهــا تماثل ســنية فى العمر ــ فى الخمسين ــ ولكنها رشيقة مزخرفة ذات شعر ذهبى وعرق أجنبى • استقبل من ناحيتها تيارا مثيرا هو الذى لم يهتم بالنظر الى امرأة منذ تزوج من ســنية المهدى • عاش حياته زوجا مثاليــا لا يزهــد ولا يتغير ولا يحلم حتى لفت الأنظار بطبعه العجيب • ولا يذكر أحد من معارفه أنه سمعه يحدث عن عالم المرأة حتى قال صاحبه راضى أبو العزم مدرس العلوم •

ــ حامد متخصص فى زوجته •

وبدا أن المرأة هيجت اهتمامات الجــيران بفرنجتهــا وعصريتها وملابســها فانتشر من نافورتهــا الشــادية رذاذ المعلومات • قيل أن أمها افرنجية ــ وان لم يحدد الجنس ــ وأنها أرملة للمدعو حسن كمال الذى كان مدرسا بمدرسة الفنون وعضو بعثة فى الخارج • وقيل ان لها ابنة وحيدة مترجمة بوزارة الخارجية • ثم صحح الخبر فيما بعد فقيــل انها ابنة

زوجها من زوجة سابقة متوفية وأن المرأة تبنتهـا نعقمها فعد ذلك حسبنة تحسب لهـا • ثم عرف أن اسـم المرأة ـ بعد اسـلامها ـ مرفت وأن البنت اسـمها ألفت • وكانت المرأة تسلى وحدتها بالمشى فى شـوارع حلوان وزيارة الحديقـة اليابانية ، تمضى رشيقة براقة مثيرة داعية ـ دون مبالاة ـ لشتى الظنون ، باسمة متحدية ، بخلاف ألفت المواظبة على عملهـا والمتسـمة بالجدية والحياد أيضا • وبالقياس الى حامد برهان لم تكن مرفت مجرد امـرأة مثيرة تسعى ولكنها كانت غـزوة اقتحمت حصـنه المنيع ، ونار أشعلت هشـيم خيـاله ، وسـيلا جرف سـده العالى • وعجب الرجل لحاله مغمغما :

ـ أعوذ بالله •

وذكره ذلك بما جرى فى الحـرم الجامعى وفوق كوبرى عباس من مظاهرات وسفك دماء فقال :

ـ هذا يثبت أن الأرض تدور على قرن ثور !

وعم البلاء عندما وهبته المرأة انتباهها ولم يعد ثمة شك فى أنها تشجعه ! • وذات يوم تلاقت أعينهما فى نظرة آسرة فابتسمت اليه • تناثرت ارادته وانفجرت غرائزه ، وتمخض جسده البدين عن جنون أحمر • تناسى واقعه وسنية وكوثر ومحمد ومنيرة فمضى وراءها الى الحديقة اليابانية • لم يكن

يدرى شيئا عن الغزل ولا حتى عما يجب أن يقال فسلم نفسه فى براءة طفل ، وتواعدا على اللقاء فى القاهرة مختارا اليوم الذى يتسلم فيه معاشه على سبيل الحــذر • وبهــذه العلاقة استوى ـى ـقام الحبرة • أدرك من أول وهلة أن « مصروفه » لا يسمح له بعلاقة غير مشروعة . فضـــلا عن أنهما لا يجدان عشا مناسبا • وقالت له :

ــ انى سيدة محترمة !

فقال ــ وكانا يجلسان فى محل باليرمو بالهرم ــ بصراحة مؤثرة :

ــ وأنا كما ترين فقير ••

فقالت بجرأة غريبة :

ــ لدى ايراد خاص لا بأس به •

فقال بسذاجة :

ــ ممكن احتفظ بنصف معاشى اذا توظف ابنى وابنتى فى القريب العاجل •

هكذا انحرف الحديث الى « الشرع » وقذف بحامد برهان الى حياة جديدة لم تجر له فى خاطر ورجع الى حلوان وهو يقول لنفسه :

ــ ادرك الآن معنى أن يغلب انسان على أمره !

أى قنبــلة انفجرت فى صــدر ســنية المهدى والزوج

المســتأنس المحب البكاء يقف بين يديهــا حانى الظهر مغروز العينين فى البساط القديم المنجرد وهو يقول :

ــ انه أمر الله ولا حول ولا قوة الا بالله ..

استيقظت من كهفها على صدمة كهربائيــة مزلزلة . ماذا يقول الرجل الممسوس ؟ :

ــ تزوجت ، انها محنة ، ولكنك ستظلين الزوجة والأم !

اذن فأى شىء يمكن أن يحدث .

ــ انك مجنون ولا شك !

وكعادته عند غلبة الانفعال دمعت عيناه . استمسكت هى بمظهرها الرزين المجــلل بذهــول غامض . كرهت دموعــه واحتقرتها وتردت بيقين فى هاوية . وثبت بها دفعــة مباغتة لصفعه ولكنها لم تفعل . كظمت دوامتها بسلك صلب . أمرت قلبها بأن ينكسر وحده وفى صمت جليل وبأن يتشرب أشــنع الآلام كما لو كانت ماء عذبا . قال بصوت رجل آخر .

ــ لن يفصل بيننا شىء .

عند ذاك هتفت به :

ــ لا ترنى وجهك أبدا .

وتلقى محمد ومنيرة الخبر فصاح محمد :

ــ يا خبر أسود !

أما منيرة فلم تتبس ثم أفحمت فى البكاء • وقف قلباهما وراء أمهما وأدانا أباهما دون قيد أو شرط •

وقالت منيرة لمحمد وهما فى الفراندا وحيدين :

ــ **أنا لا أفهم شيئا ••**

فقال بامتعاض شديد :

ــ انها مأساة ألقيت على بابا لتلقى بعد ذلك على ماما ثم نطوقنا جميعا •

ودفع الزواج الجديد الزوجين الى ضربين من الجنون • جنون صمت وكبرياء غزا الأم • صممت على ممارســة حياتها اليومية وكأنها لا تبالى بيد أنه كانت مشــتعلة القلب والعقل طيلة الوقت فراحت ترى وراء الأحداث اليومية ــ المسموعة والمقروءة ــ شبح مأساة كونية غامضة . وأن حماقة الانسان داء متأصل لن يشــفى منــه الا بمتناقضات شــتى كالعنف والحكمة والرحمة ! • وبذهاب « العجوز المتصابى » أتيح لها فراغ لم تعهده من قبل فنعلق اهتمامها بالبيت . وشعرت أكثر من أى وقت مضى بأنه ليس على ما يرام • انه يطعن فى القدم دون رعاية ولا عناية • ها هى تتجول بين الحجرات والحديقة . تنظــر وتتفحص . بهتت الألوان • تقشرت الأركان . تشــقق خشب الأرضية وفقد مرونته . ذبلت الحديقة وملأتها الوحشة وتراكمت فى أجزاء منها الأوراق الجافة • قالت :

ـ العين بصيرة واليد قصيرة .

فتابعها محمد مرة بعينيه ثم همس فى أذن منيرة .

ـ انى قلق .

فهمست له بدورها :

ـ ليتها تروح عن نفسها ولو بالدموع !

أما حامد برهان فلم يبق له الا أن يغمض عينيه ويصم أذنيه حيال الماضى وأن يرمى بنفسه فى بحر العسل . انقلب الى مراهق ذى رأس أبيض وجسم ملىء بعنفوان لا يدرى من أين جاء . ووجد فى مرفت امرأة فائقة المقدرة متقنة لفنون من العشق لم يعرفها من قبل . وبادلته هياما بهيام ، ولولا دعمها المالى لحياتهما المشـــتركة ما أمكن لهـــا دوام . وبمضى الأيام انتقل مجلس الســـمار الى الشقة الجـــديدة ، وأضافوا الى أحاديثهم المألوفة موضوعات جديدة عن وصفات ناجعة لتجديد الشباب . وفى أثناء ذلك ولد رشاد ابن كوثر ، وتخرج محمد ، ثم لحقت به منيرة . وهى أحداث خليقة ببعث السرور الشامل ولكنها لم تحظ الا بفرحات سريعة الزوال كانفراج السحب عن شروق الشمس دقائق فى يوم مطير عاصف . وزاد من تجهم الجو اشتعال حرب فلسطين فعلا صوت المعركة المبهم المشحون بالقلق على معارك حامـــد برهان الجنســـية الظافرة وشـــد سنية المهدى من حال سيئة الى حال سيئة أخرى كمن يفلت من

قبضة صداع ليقع فريسة لروماتيزم ، على حين تابعت منيرة الأنباء من موقع وظيفتها الجديدة كمدرسة للغة الانجليزية بمدرسة البنات بالعباسية ، أما محمد فوجد عملا فى مكتب الأستاذ عبد القادر قدرى المحامى الوفدى المعروف ، وكان موصولا بصداقته من عهد وفديته الخالصة فلم ينقطع عنه بعد أن مازجت وفديته « اخوانية » متصاعدة . وبذل محمد جهدا صادقا فى عمله حاز به ثقة أستاذه غير أن الحرب انتهت بهزيمة العرب ، ومقتل النقراشى ، واعلان حرب داخلية لا هوادة فيها ضد الاخوان . فقبض على محمد فيمن قبض عليهم ضمن شعبة حلوان . وهز النبأ الأسرة هزة فاقت أحزانها الخاصة والعامة . واستقبل البيت القديم بحلوان الوجيه نعمان الرشيدى وكوثر ، بل جاء حامد برهان نفسه . وتجاهلت سنية زوجها تماما فتجنب ازعاجها ومضى يوجه حديثه الى نعمان أو منيرة . ولم يكن دون سنية قلقا حتى قال الوجيه نعمان :

ــ مؤكد أنه لم يتورط فى جريمة فلا خوف عليه ..

فقالت منيرة :

ــ أخشى ألا يفرقوا بين البرىء وغيره فى حومة الانتقام .

فقال حامد برهان :

ـ لم يرتح قلبى قط لانضمامه الى الاخوان ، وكلنا مسلمون والحمد لله ..

وشعر نعمان الرشيدى بأنه مطالب بأكثر من الكلام لعلاقته الوثيقة بالمسئولين من جميع الأحزاب فقال :

ـ سأبذل ما فى وسعى رغم أن الدفاع عن اخوانى فى هذه الظروف تصرف مرعب !

كان حريصا على علاقاته الودية بجميع الأحزاب ، لذلك ساءة أن يكون أخو زوجته اخوانيا . فكيف يسعى بنفسه الى الكشف عن هذه الحقيقة الفاضحة ؟ ! . وجعلوا يواسون سنية باعتبارها المحور الأول للحزن فقالت بأسى :

ـ ثقتى بالله لا تتزعزع .

غير أن الحزن قطع قلبها فساء نومها ، وكانت تنام اذا نامت وقلبها مسهد ، وتحلم بالعذاب . وجاءها خطاب من أخيها ينعى اليها بكريه الذى استشهد فى الحرب بعد أن ظن أنه مفقود ، فسرعان ما سافرت الى بنى سويف للعزاء . على أنه أفرج عن محمد بعد فترة غير قصيرة فرجع ذات يوم وألقى بنفسه فى حضن أمه . وتظاهر ـ رغم شحوبه وذبوله ـ بالسرور مخفيا عن أمه الأخبار المحزنة . ورجع الى عمله

بمكتب الأستاذ عبد القادر قدرى مصمما على الاجتهاد ؛ ولما سأله الأستاذ :

ــ هل شبعت من الاخوانية •

أجابه ضاحكا :

ــ العكس هو ما حصل !

فقال الأستاذ عبد القادر :

ــ افهم معنى الوفد قبــل فوات الأوان ، انه ليس حزبا ولكنه قاعدة الأساس المتماسك ، هو بكل ايجاز مصر •

فتساءل محمد :

ــ هل ندور على مدى العمر حول الاستقلال والدستور ؟ !

ــ جدد ما تشاء ولكن فوق القاعدة المتماسكة وألا وجدت نفسك فى عهد ما قبل الأسر !

ولما انفرد محمد بأخته منيرة قالت له برثاء :

ــ شد ما هزلت !

فقال متجهما :

ــ لن تنزع من روحى آلام الضرب الذى انهمر على جسدى كالمطر !

وأدركت سنية ذلك بحدسها ، وبتأويل أحلامها . ولكنها صممت على الصبر مع الحياة الجديدة • لفظت حامد برهان من ضميرها كما يبصق الانسان حلوى فضــح الريق فسادها

ولكنه بقى جرحا مفتوحا ينعى الحب والوفاء • وقالت انهــا ستنسى تماما وتسلو ، بل وتسعد ، لو أمكنها ذات يوم أن تعيد الى البيت شــبابه الغض • لديهــا نصف معاش « الخائن » ومرتب منيرة ومحمد ولكن الغلاء يمضى فى ســبيله فى بطء وثبات . ثم ان لمحمد ومنيرة آمالهما الخاصة ! • لم يبق لها الا الحــلم • هو الذى يرمم ويطلى ويبيع الأثاث القديم ويشترى أثاثا جديدا ، هو الذى يشذب الأعشاب . وبغذى الجذور . ويسمد الأرض . ويغرس أشجار الورد • انها تحلم وتناجى أرواح الأولياء والجدود • وتتقاوم فى مجرى ذلك ذاكرتها التى تخون الارادة فتقــذف بشهاب خاطف لذكرى جميلة ما كان ينبغى أن تبرق فى الأفق وتقول لنفسها :

ــ لا تطمئنى لشىء طيب •

وتغدق على منيرة تساؤلاتها القلقة فتعلم أن بهجت سليمان توظف بشهادة زراعية متوســطة فى وزارة الزراعه وأنهما ما زالا مقيمين على العهد فتغمغم لذاتها :

ــ الأمر لله !

ــ أما محمد فهو آخذ فى استرداد صحته وشق طريقه • لم تعد توجــد شعب احوانية ولكن الدين أصـــبح على رأس مطالعاته ؛ واكتسب عنه رؤية جديدة مختلفة عن دين أسرته المتسم بالسماحة والبساطة • وقد استأذن أمه فى زيارة أبيه

عقب الافراج عنه فأمضى ساعة طويلة معه شهدتها ميرغت هانم وآنسة ألفت • رأى ألفت لأول مرة بتمعن وعن قرب فتحرك قلبه البرىء • واصطحبها معه فى عباءة خياله عند انصرافه • ورآها فى القطار ؛ بل وجالسها فيه أحيانا وتبادلا الحديث • وتسلطت بعد ذلك على ذاكرته وخيـــاله • فلزمته فى البيت والمكتب والمحكمة على حين وهبته — فى واقع الحيــاة — استجابة طيبة • وخفق قلبه بسعادة الحب حتى تساءل بقلق :

— ولكن ماما ؟ !

واذا بالحياة العامة تباغته بفرحة غير متوقعة فتستقيل الوزارة ويبشر الأفق بانتخابات حرة • صرخ محمد :

— اللهم لا شماتة !

أما حامد برهان فرقص طربا • والتقى مع محمد فى دائرة انتخابية واحدة فهمس فى أذن ابنه :

— الشكر لله على أنك ما زلت فى الأعماق وفديا •

فقال له محمد باسما :

— الاخوان معكم فى هذه الانتخابات •

ورجع الوفد الى الحكم فصعد حامد برهان الى العــرش من جديد وهو يقول :

— الخلود ممكن فى هذه الحياة •

وأقبلت أيام وردية فآمن الناس بأن أيام المحن قد ولت •

وراحت منيرة تفكر فى مستقبلها من موقع حبها العبيد ، كما ربط الحب بين محمد وألفت فتعاهدا على الزواج والانتظـار مع تأجيل اعلان الخطوبة لفرصة طيبة • ثم تعثرت مفاوضات تعديل المعاهدة وتفشى القلق حتى جلجل صـوت مصطفى النحاس بالغاء المعاهدة • وبلغ الحمـاس مداه فى مجلس السمار بشقة ميرفت هانم • وتذكر حامد برهان حماسه يوم عقدت المعاهدة على ضوء حماسه الجديد لالغائها فقال :

ـ من تكون عروسا فى ١٩٣٦ فكيف تصير فى ١٩٥١ ؟ !

فقال خليل الدرس :

ـ انه زمن سريع وقلب !

فقال حامد برهان :

ـ لا يقدر على الغائها الا من قدر على عقدها ، هو الوفد دائما وأبدا ••

وتتابع الفداء والعنف حتى اشتعلت النيران فى جنبـات القاهرة • قال حامد برهان لميرفت :

ـ الويل للخونة !

فقالت وهى بعيدة عن مشاركته :

ـ حلوان بمأمن من ذلك •

ووقفت سنية فوق السطح تنظر صوب القاهرة من خلال

منظار مكبر ربحه محمد فى صباه فى نصيب سينما أوليمبيا وهى تردد بقلق بالغ :

ــ ارفع يارب غضبك ومقتك عنا ..

ولما اربد وجه القــاهرة بالغضب وأنذر بأوخم العواقب مضى محمد الى وزارة الخارجية فاصطحب ألفت الى محطة باب اللوق قائلا :

ــ أخاف أن تنقطع المواصلات ..

رجعا قبل أن يقدرا مدى الخطر الحقيقى الزاحف لالتهام صفحة كاملة من تاريخ دام . وهوى رد فعل عنيف كالصاعقة . وقال حامد برهان لسمارة :

ــ المجرمون يقهقهون !

غير أن القهقهــة انقطعت حال ارتفاع صــوت جديد فى الصباح الباكر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . تبادلت الأسرة النظرات حول مائدة الافطار وتكلم محمد قائلا :

ــ فلنستبشر خيرا فأى شىء خير مما كان .

وتساءلت منيرة :

ــ والانجليز ؟ !

فقالت سنية :

ــ أمل مجهول خير من يأس راهن !

وتابع حامد برهان سيل الأخبار المتدفق بذهول . كان ــ

كوفدى ـــ يشارك فى الأحداث ايجابا أو سلبا عندما كانت الحلبة خالية للوفد وأعدائه . أما هذه المرة فالقوة الفعالة غريبة وطارئة ومبهمة • ورأى العدو التقليدى ـــ الملك ـــ يرحل الى الأبد فلم يدر أيعتبر ذلك نصرا أم هزيمة . وهيمن عليه فتور فتوجس خيفة غامضـــة • ولما رأى ميرفت دامعة العين لذهاب الملك تمتم بميكانيكية :

ـــ هذا جزاء العبث !

فتساءلت ميرفت :

ـــ ألا ترى أن السلطة آلت الى رجل وضـــع نفسه فوق القانون ؟ !

فقال وهو لا يصدق حرفا مما يقول :

ـــ انهم يعدون بتقديس الدستور •

ومثل ميرفت بكت كوثر وهى تستمع الى نبأ طرد الملك ، واستشهد الوجيه نعمان الرشدى بالقرآن لأول مرة فى حياته فقال :

ـــ اذا زلزلت الأرض زلزالها •• وقال الانسان مالها •

وتحمست منيرة للحركة بلا تحفظ وبتلقائية ، وأيضا متأثرة بحماس حبيبها ســـليمان بهجت الذى وضح أن أخاه ضـــمن الضباط الأحرار • ولحق بها محمد عندما آمن بأن الحركة « اخوانية » بل قد دعى الى بعث النشاط من جديد فى شعبة

حلوان • ودعا حامد برهان ابنه محمد الى مقابلة عاجلة وكان على علم بما بينه وبين ألفت وقال له :

ـ ابعد عن الاخوان ، حسبك ما أصابك نتيجة لانضمامك البرىء اليهم ••

فقال محمد بدهشة :

ـ كيف أهجرهم بعد أن توج كفاحهم بالفوز المبين ؟

فقال الأب كاظما غيظه :

ـ ما هى الا حـــركة بلا جذور شـــعبية فلا تعرض نفسك لغضب الشعب كما تعرضت سابقا لغضب الحكومة ••

فابتسم محمد ثقة وقال :

ـ الماضى مات قبل أن تمتد يد لقتله ••

واعتبرت الأسرة أن لها فى الحركة الجديدة عضوا ، وأنها تتحول به من أسرة مغمورة الى أسرة حاكمة أو مشاركة فى الحكم ، واعتبرت منيرة أن لها عضـــوين : أخاها وحبيبها ، وانشرح صدر سنية وخيل اليها أن حلم تجديد البيت سيتحقق فى وقت قريب وأن متاعب المعيشة ستخف يوما بعد يوم ، حتى أحزانها الخاصة ستذوب فى النشوة الشاملة • وتطور محمد فى أحاديثه من ضمير الغائب الى ضمير المتكلم ، فبات يقول سنفعل كذا وكذا ، وتمنت ألفت أن يلمع كالآخرين وأن يذلل ذلك العقبات المعترضة لزواجها • ودون أن تدرى مضت

تهتم بالسياسة وبالدين متخذة من محمد مرجعا ومرشدا حتى قال محمد لنفسه :

ـ انها مختلفة تماما عن أمها التافهة •

وذات يوم سأل منيرة :

ـ كيف تتصورين موقف ماما منى اذا كاشفتها بعلاقتى بألفت ؟

ففاجأته منيرة قائلة :

ـ أخبرتها رحمة بها !

فهتف :

ـ لكننى لم أشعر بأى تغير من ناحيتها !

ـ ألا تعرف ماما ؟ !

وكانت سنية قد رأت ألفت مرارا من نافذة حجرة نومها الخضراء • وكالعادة تنبأت بما سيحدث فوطنت النفس على التسليم به • وقالت أن حظها على أى حال أحسن من حظ ملكة مصر الضائعة ، وأنه من الحماقة أن تتحدى أحداثا تحمل فوق جبينها طابع القدر • ولكن كيف يستعيد البيت شبابه ؟ سيمسى ذلك حلما لا يتحقق الا بحلم ولا يبقى لها الا أن تعبد الله • وذات مساء راح حامد برهان يشرح خبايا الموقف السياسى لسماره قائلا :

ـ ما الحركة الا مؤامرة أمريكية للقضاء على الوفد !

وأراد أن يحلل رؤيته ولكن حماسه فتر فجأة . وصمت . وشحب لونه وتفصد جبينه عرقا رغم برودة الجو . وطرح جسمه البدين على ظهر الفوتيل الكمونى فسأله حسن علما المهندس بقلق :

ــ مالك ؟

حاول أن يبتسم فعجز . خانته قواه . لاح له وجه بوذا ، ثم أسبل جفنيه . وحملوه الى فراشه ، استدعت ميرفت طبيب الضاحية فشخص الحال بأنه هبوط فى القلب وأمره بالراحة التامة . انزعج الأهل والسمار ، وذهبوا فى تفسير الحال مذاهب شتى . قالوا انها الانفعال السياسى المستمر . وقالوا انه الزواج دون غيره . حتى قال جعفر ابراهيم :

ــ انها مشيئة الله .

ولما عرف الخبر خارج شقة ميرفت عاده محمد ومنيرة وكوثر ونعمان الرشيدى . وعادته أيضا سنية المهدى خاصة وأنه لم ينتزع من نفسها تماما رغم كل شىء . أجل ضاق صدرها لدى اقتحامها لحصن خرتها ولكنها صافحت لأول مرة ميرفت وألفت . وانحنت فوقه متمتمة :

ــ شد حيلك !

ابتسم معلنا امتنانه ، وتأزم الجو بتوتر خفى ، وتضاربت شعارات المجاملة مع الانفعالات العدوانية الباطنة . وعلمت

ميرفت بأنه لن يخلو يوم من أيامها من التنغيص لرؤية الوجوه التى لا تطيقها • وطال الرقاد • وعرف أنه سيطول أكثر ، بل عرف أن حامد برهان لن يرجع الى سابق عهده أبدا • وأصبح تمريضه عبئا على امرأة صاحبة مزاج كميرفت • ولم يفقد المرض حامد برهان حساسيته فسرعان ما شعر بأنه غريب فى مرقده ، وضاق بموقعه • ووجد فى قهر المرض ما شجعه يوما على أن يهمس لمحمد ابنه :

ـ أريد أن أرقد عندكم ••

وفى الحال قال محمد على مسمع من ميرفت مخاطبا أباه :

ـ لو رقدت عندنا لأعفيتنا من زيارات لا نهاية لها !

وأدركت ميرفت مغزى قوله فقالت مدارية ارتياحها :

ـ انى فى خدمته مهما طال الزمن !

فقال محمد تشجاعه رجل شارع فى الزواج من ابنتها :

ـ هذا لا شك فيه •• ولكن يوجـد عندنا كثيرون وأنت وحيدة ••

فقالت بلباقة وهى فى الواقع تختم علاقتها بالرجل :

ـ انى راضية بما يريحه !

ولم تعارض سنية ، وخالط حزنها على حامد ارتياح لاعترافه بأنها رفيقة المرض وأن بيتها هو المأوى • هكذا رجع حامد برهان الى فراشه القديم بالحجرة الخضراء فاستقر

السلام فى عينيه الجميلتين • ولم يكن بقى من جسمه الهائل شيء يذكر ، وتجسدت الشيخوخة فى وجهه كأنما ألقيت عليه فى لحظة خاطفة • ونظر فيما حوله بسرور طارىء وقال بصوت متهدج :

ــ أوحشتمونى يا أولاد ••

ولم يوجه كلمة الى سنية قانعا بأن رجوعه يغنى عن أى قول • والحق أنه عندما جفت ينابيع شهوته لم يجد فى قلبه سوى حبها القديم كالكنز المدفون عندما تزاح عنه طبقة الأرض • وأن روحه ــ اذا حان الأجل ــ يجب أن تصعد من هذا المكان العتيق المبارك المعبق بأطيب الذكريات • وجعلت كوثر تنظر اليه طويلا ثم خانها صبرها فدمعت عيناها وقالت :

ــ تغيرت كثيرا يا بابا !

فوجم الحاضرون ولكن حامد برهان ابتسم وقال بلسان مضى يثقل :

ــ وأنت يا بنت ألم تصيرى أما ؟ !

ولكنه سر الجميع بطمأنينته وأنسه بالمكان وأصحابه • وجاء يوم فى مطلع الربيع شديد الحرارة فقال :

ــ لم أستحم منذ عهد طويل !

فقالت منيرة باشفاق :

ــ نرجع الى الطبيب •

فقال بمرح :

ــ الانسان طبيب نفسه !

وذهب الى الحمام معتمدا على سـنية ومحمد . وجرى الماء على جسده فاجتاحته مرحة شخص اعتاد طبلة حياته النظافة والأناقة ، وعاد الى فراشه سعيدا وهو يقول :

ــ الانسان بلا صحة أقل من حشرة •

ولما جاء الليل لم ينم • تدهور بسرعة مذهلة حتى صار شحوبا مركبا على هزال • وأرق الليل كله يتأوه وجسمه يكاد يتقصف • وجيء بالطبيب فاحتج على الحمام بلا تحفظ ولكنه حرر روشـته على أى حال ، وعنـد منتصف الليل ، وأهله محدقون به ، أسلم الروح دون جهد كأنما غلبه نعاس مفاجيء •• ودل الحزن الشديد عليه على تعلق الجميع به • سنية فاق حزنها كل تقـدير • ولما لم يكن يملك مدفنا فقد دفن فى مدفن آل المهدى بالامام • وأنكرت سـنية حال المدفن التى آل اليها ، ورأت أنه أصـبح فى حاجة الى تجـديد كالبيت القديم ، فانضاف ذلك الى الهموم التى استأثرت بها فى الزمن الأخير • ولعل كوثر كانت أحزن الاخوة عليـه لطبعها الذى يستجيب للحزن بقوة غير عادية ، ولأنها أحبت الرجل لدرجة العبادة حتى انها غفرت له زواجه من ميرفت قبل محمد ومنيرة

بزمن غير قصير • وعند مطلع الصيف رجع الموت لزيارة الأسرة فأخذ نعمان الرشيدى زوج كوثر متسمما بالباولينا عقب تدهور الكلى • ولعل الموت أراحه من رعبه الذى لم يكف عن مطاردته مذ جاءت الثورة • أجل لم تكد تمسه قوانين الاصلاح الزراعى اذ أن مصـــادر ثروته ترجع الى العمارات والأموال الســائلة ولكنه اعتقد بأن دوره حتم مؤجل وأنه آت لا ريب فيه • وبكته كوثر بحرارة وصدق ولكن سرعان ما أفاقت على تحرش أبنائه ، فخف محمد الى جانبها بأخوته وخبرته كمحام ولكنها قالت له من أول يوم :

ــ أبعدنى عن التحــديات فلا شىء فى الدنيا يساوى الشقاء •

فقال بتصميم :

ــ حقك تأخذينه لآخر مليم •

فقالت بضراعة :

ــ حقى مكفول بالقانون ولكنهم ينظرون بطمع الى الفيلا ، وهى كبيرة ولا أطمئن فيها وحــدى وأريد أن أعود الى ماما فى حلوان ••

ورجعت كوثر الى حلوان حاضنة رشاد ، وانهمك محمد فى فرز ارثها هى وابنها من الأرض والعمــارات والأموال السائلة ثم انقطعت الصلة بآل الرشيدى الى الأبد • ورحبت

[illegible] فى باطنها اخفى بثروة كوثر • وانبعثت فى صدورهم امال لما هو معروف عنها من طيبة واستكانة فاعتبروها هدية مرسلة من السماء حاملة الفرج لأزماتهم المستعصية • منيرة توغلت فى العمر حتى قاربت الثلاثين وهى ملهوفة على الزواج . ومحمد يشعر بأن عهد خطوبته طال أكثر مما ينبغى ، حتى سنية تتوق بكل قواها لتجديد البيت والمدفن • تربصوا جميعا بأيام الحداد . ولما خفت الغيوم وواصل الراديو أغانيه تشجعت سنية فقالت فى حياء مخاطبة كوثر :

ــ حبيبتى ألا ترين معى أن البيت فى حاجة الى تجديد ؟!

سرعان ما شعر محمد بالخطر يهدد مشـــاريعه فتبادل مع منيرة نظرة سريعة جمعتهما فى وجدان مشترك فقال :

ــ البيت لا يعيبه شىء وهو يستطيع أن ينتظر •

فقالت سنية محتجة :

ــ انه مأوانا على مدى العمر ••

فقال اكتسبها فى المحكمة :

ــ نحن فى حاجة الى المعونة لا البيت ••

وأشار الى منيرة والى ذاته ثم واصل ليخفف وقع كلامه :

ــ ولو على سبيل القرض '

فسرعان ما انهزمت سنية أمام رغبة محمد ومنيرة مؤجلة أحلامها الى مستقبل مجهول ، على حين تمتمت منيرة ضاحكة :

ــ ولو على سبيل الافتراض •

ولكن كوثر على طيبتها كانت متمرسة بواجبات ست البيت مذ عملت مساعدة لأمها ، وتعلمت منها مسك الدفاتر والحرص الحكيم وكراهة الاسراف ، فكانت طيبة وحكيمة • وقد شاركت فى ميزانية البيت منذ أول يوم لها فيه مما يسر العسر وأضفى على البيت سلاما • ولم تغب عنها أزمة محمد ومنيرة ، فمالت الى اسداء المعونة ووعدت بها • وحدث أن جاءتها خاطبة عقب وفاة زوجها بثلاثة شـــهور بعريس محترم يماثلها فى السن فانقبض صدر محمد ومنيرة . وقال محمد بنبرة الناصح :

ــ علينا أن نتأكد من اخلاصه •

ولكن من حسن حظهما أن كوثر أعلنت زهدها فى الزواج مرة أخرى ، واهبة نفسها لرشاد الذى يملأ دنياها ، ومتشجعة بطبع هادىء يوشك أن يكون برودا • وعلى أى حال فبفضلها أمكن أن تتزوج منيرة من بهجت سليمان ، وأن يتزوج محمد من ألفت • تزوجت منيرة بعد أن صار حبها حكاية واختارت عشها شقة جديدة بالعباسية على مقربة من مدرستها ، أما محمد فزف فى شقة بعمارة نصف جديدة بباب اللوق ليكون على مقربة من المكتب من ناحية وليمارس نشـــاطه الســـياسى فى مجاله المركزى • وخلا البيت القديم اسنية وكوثر ورشاد وأم سيد • ورثت كوثر لنظرة أمها المتطلعة وأشواقها الدفينة فأمرت بطلاء

الحجــرات بالزيت وتنظيف الحــديقة وشراء بعض أصص القرنفل ، ورغم أن ذلك لم يحقق من الحلم عشره الا أن سنية ســـعدت به ولم تيأس من هطول الرحمة ذات يوم . خاصـــة عندما يكبر رشاد الوسيم ويدعو الأصدقاء للزيارة كما كان يفعل جده حامد برهان • وفي سكرة الفوز الطارئة أشارت بحياء شديد الى المدفن ولكن كوثر قالت :

ــ ماما •• انى اتشاءم من هذه السيرة !

فلم تلح ، وأسفت ، وقالت لنفسها « ما هـــو الا البيت الباقى » • غير أن قلبها فاض بالشكر • فلو أنها لقيت الحياة وحيدة بعـــد زواج منيرة ومحمد لاضطرت الى استجداء أبنائها ، ولتجهمتها الحياة كما تتجهمها الأحلام فالحمد لله على أى حال • وسعدت سنية أيضـــا لتوفيق منيرة ومحمد فى زواجهما كما استشعر ذلك قلبها فى زياراتها لباب اللوق والعباسية • قالت يوما لكوثر :

ــ بهجت أثبت اخلاصه بصبره الطويل ولكنى غير مطمئنة لربيبة ميرفت ••

فقالت كوثر بهدوء :

ــ محمد يعرف كيف يتصرف ••

وبرزت منيرة فى عملها التربوى أكثر بعد أن شـــملتها سكينة الحب ، ودعا الأســـتاذ عبد القادر قدرى محمد الى

مشاركته فى مكتبه بعد ما اعتقل أكثر من مرة لوفديته . قال يوما لمحمد :

ــ الوفدية أصبحت تهمة فانظر وتأمل !

وكاد محمد أن يجزع وهو ينتظر أن تسفر الثورة عن وجهها فتعلن حكم الاسلام ليحتل هو مكانته المشروعة . ولم يكن طموحه شخصيا فقط فقد ملكته التجربة الدينية التى انساق اليها قديما هاويا وبمحض المصادفة ، فبات يحلم بحكم الاسلام كأنه غاية من الغايات . وأنجب محمد شفيق وسهام كما أنجبت منيرة امين وعلى وتورد الأفق . واذا بأزمة تعترض سبيل الثورة ، وصراع عنيف يقوم بين رئيسها الأول ورئيسها الثانى . وبين شد كادت تصفى به الثورة وجذب رجعت به الى قواعدها انقض طوفان لتصفية الاخوان ! . وبدلا من أن يجد محمد نفسه على رأس مؤسسة أو وزارة ألقى به فى أعماق سجن رهيب . وبالرغم من أنه لم تثبت عليه تهمة الا أنه قضى فى الاعتقال عامين ، وخرج منه بعين واحدة وساق عرجاء . وهرع الجميع الى شقة باب اللوق ، واجتمعت للمرة الرابعة سنية وميرفت حتى قالت سنية لنفسها « قضى على ألا أراها الا عند حلول المصائب » . وضمت محمد الى صدرها وهى تبكى وهتفت :

ــ عند الله الحساب يا ابنى ..

وتقنع محمد بوجه جديد خبر الموت والعذاب ، ولكنه تجلد أمام الأعين ، وقال :

ــ انى أحسن حظا ممن أهلكتهم المشانق أو غيبتهم السجون الى الأبد •

وحاول أن يبتسم ثم قال باصرار حقيقى :

ــ بقى لى ايمان لا يتزعزع •

وكان اصراره أقوى من صوته • الآن عرف الحياة والناس كما عرف الوحشية والعذاب • واستمد من أهله قوة أشعل بها شمعة فى عالم يموج بالظلام • وحانت منه التفاتة الى ألفت فقبض على يدها ورفعها كأنما يقدمها الى الجمهور فى حفل عام وقال :

ــ اليكم أفضل زوجة على وجه الأرض !

أجل ، لقد صمدت فى المحنة • قامت بواجبها كمترجمة وربة بيت وحضنت شفيق وسهام بالرعاية متحدية النبذ والتحقيق والرزق المحدود • أثبتت أنها أقوى مما توقع محمد أو تصورت مبرفت ؛ وأقامت على حب الزوج الغائب بتفان ، وتحمست أكثر لمبدئه ، ولما رجع شبحا محطما غمرته بالحب والحنان راشقة فى سمائه السوداء نجمة ماسية • وكانت كوثر تزورها كثيرا طيلة العامين ، وعرضت عليها معونة ولكن ألفت

اعتذرت شاكرة وان قبلت الهدايا لشفيق وسهام • فى تلك الأيام الحزينة قالت كوثر لأمها :

ــ ألفت هدية نادرة المثال •

فأحبتها سنية ــ ربما لأول مرة ــ وقالت :

ــ الشكر لله على أنها لم تعجن بطينة أمها •

ولم يكن تعريضـــها لميرفت من أجل مأساة الماضى وحدها ولكن لرعونتها ــ عقب وفاة حامد برهان ــ التى صارت حديث حلوان • برزت كامرأه متصابية فى الخامســـة والخمسين ، متبهرجة ، تنطلق بمفردها الى الحديقة اليابانية أو السينما كأنما تعرض نفسها على الرائح والجائى • وجرى الهمس عن علاقة جديدة تتخلق بينها وبين حسن علما مهنــدس المبانى ــ أحد سمار مجلس المرحوم حامد برهان ــ ولما شاع ما يقال وملأ الأسماع تحولت العلاقة الى خطوبة ، وطلق المهندس امرأته ، ولكن الزواج تأجل اكراما لزوج ألفت السجين ، وان مورس بالفعل بصفة غير رسمية ؛ وكانت كوثر تعلم بما يعلمه الناس جميعا ولكنها قالت :

ــ ألفت معدن آخر والحمد لله !

وأخفى الخبر عن محمد فأمضى فترة نقاهة قصيرة ثم رجع الى مكتبه بعين واحــدة وأخرى زجاجية وقلب متوثب للعمل • وغشى المحاكم وهو يعرج متأبطا حقيبته بذراع متوكئا

بالأخرى على عصا غليظة • وانهمك فى عمله انهماك مؤمن معذب يحلم بطوفان نوح من جديد • ومضت سنية فى معاشرة آلامها التى لا شفاء منها ، وأحلامها المعاندة المستعصية ، مستوصية بالهدوء والصبر والرنو من حين الى حين الى الصورة التذكارية • ولكى تعفيها كوثر من بعض متاعبها استخدمت امرأة جديدة « أم جابر » كطاهية بعد أن اقتربت أم سيد — مثل أمها — من الستين ، ولكى تستثمر حل وقتها فى رعاية رشاد الذى ألحقته بروضة الأطفال سابقا ابنى خاله شفيق وسهام وابنى خالته أمين وعلى • هكذا بدأ جيل الأحفاد ، أبناء العشق والآلام ، والوطن تتجاذبه عوامل الصراع الخفية من ناحية وأحداث البطولات من ناحية أخرى • وعرفت منيرة زوجها أكثر وأكثر ، زوجا عاشقا وفحلا عملاقا ، وساذجا فيما يتعلق بالثقافة أو الحياة العامة ، ولم يخدعها اهتمامه المباغت بالسياسة عقب اكتشافه أخاه ضمن الضباط الأحرار ، وابتسمت فى باطنها لأحاديثه عن الثورة ورجالها ، ولحملته على الماضى ومخازيه • ومرة قال لمنيرة مفاخرا :

— نحن نعتبر من الأسرة المالكة الجديدة •

فضحكت قائلة :

— على مهلك يا أمير !

رغم حماسها للثورة منذ ساعتها الأولى ، والتى لم تتغير

تغيرا يذكر بمأساة أخيها التى هزتهـا من الأعماق • على أن قلقا ساورها مذ طعنت فيما بعد الثلاثين • انها تمضى وحدها مخلفة وراءها زوجها يزداد تألقـا وفحولة ، وجعنت تطارد كلمات أمها القديمة كلما نبضت فى خواطرها • واحتل سليمان بهجت مركزا ممتازا بقسـم الخبرة بالزراعة بدفعة قوية من أخيه ، وبدلا من أن يزيد من اسهامه فى ميزانية البيت ابتاع سيارة بالتقسيط رغم التحاق أمين وعلى بالروضـة وارتفاع الأسـعار ببطء ماكر • وذات مسـاء انفجرت قنبلة تأميم قناة السويس مبشرة بميلاد زعيم جديد • ليلتها قال بهجت لمنيرة :

ـ سمعت من مخضرم أن استقبال جمال فى عودته الى القاهرة فاق استقبال سعد زغلول حين رجوعه من المنفى ••

فوافقته منيرة رغم أنهـا لا تكاد تعرف عن سعد شيئا يذكر • ولم يستطع محمد أن يتذوق المغامرة بفمه الملىء بالمرارة • واتفقت ألفت معه قائلة :

ـ معاملة انسانية شريفة خير من بناء هرم •

فقال محمد :

ـ النبى عليه الصلاة والسلام أنشأ دولة انسانية ولم يشيد هرما •

واستمع البيت القديم فى حلوان الى النبأ العظيم •

لم تفهم أم سيد ولا أم جابر شيئا ، وتوقفت كوثر عن تعليم رشاد دقيقة ثم واصلت عملها بحماس ، أما سـنية التى لم تشغلها آلامها وأحلامها عن قراءة الجريدة والاسـتماع الى الراديو فقد خفق قلبها ، واقتنعت ــ رغم مأساة محمد ــ بأن زعيما جديدا يتخذ موضعه فى لوحة الزعماء الذين أحبتهم كما أحبهم زوجها الراحل • وسكر البلد بالنصر والعظمة ، وانطلقت من صوت العرب زعامة عربية جديدة ، وتضاربت الأنباء . واستفحلت الشائعات ، حتى تجسـدت الحقيقة فى صورة عدوان ثلاثى . ومرحت طائرات العدو فى سماء القاهرة ليلا ونهارا . تمطر قنابلها على المطارات والمواقع العسكرية • ومع أن الدبابات لاذت بأفنية العمائر الا أن انتصارات وطنيه ملأت الجو كالعاصفة وتمزق الناس بين الحماس والترقب • وتابع محمد وألفت الاذاعات الأجنبية حتى قال الرجل :

ــ انتهت حركة المجرمين . ولكن ما أفدح الثمن !

وقالت سنيّة لكوثر :

ــ أذنى سعيدة وقلبى كئيب !

فقالت كوثر مدفوعة بالخوف الذى ركبها :

ــ البلد خرب يا ماما •

فأشارت سنية الى فوق متمتمة :

ــ لكنه موجود •

وآنست منيرة من سليمان بهجت ذعرا كأنه فأر مطارد ، ودعا ربه قائلا بحرارة :

ــ اللهم لا تشمت بنا الأعداء ..

وكانا يستمعان الى صوت أمريكا بوجوم ويغوصان فى هوة خطوة فخطوة . ولكن هبت رياح شرقية وغربية فتناغمتا معا لأول مرة . احتجت أمريكا بجـدية وصرامة . وتتابعت الانذارات الروسية كالصواريخ حتى أجبر الغزاة على تصفية نصرهم بأنفسهم فى اذلال لا نظير له فى التاريخ . وتجلى نصر عجيب كما تتجلى فتاة الساحر من الصندوق ــ بعد غرز سيوفه فيه من جميع النواحى أمام المشاهدين ــ وهى تبسم فى مرح وأمان وثقة ! . وسرعان ما آمن الحى والجماد بأن الزعيم حقق ظفرا كالمعجزة وبأنه عملاق بين أقزام . وصادر أموال الانجليز والفرنسيين ، ضاربا للمضطهدين مثلا أعلى ، واهبا للعرب زعامة جبارة ، وانتفخ بالتالى كل مواطن نافضا عن كاهله ذل العصور ، وآوى الخصوم الى الجحور ولا مطمع لهم أكثر من النسيان . ودخل الأحفاد المرحلة الابتدائية وهم يتغنون بالزعامة والنصر . سبحوا فى بحيرة ناصرية صافية متطلعين الى صورته الشامخة بانبهار وحب . ذلك البطل الذى بدأ به تاريخ مصر فى أعقاب جاهلية ترامى ظلامها آلاف السنين . أجل حفلت المدارس الجديدة بمنغصات ــ كالكثرة

العددية وندرة المدرسين المؤهلين وقصور البرامج ــ ولكن التلاميذ الجدد لم يشعروا بها ، فعاناها أولياء الأمور وحدهم • أما كوثر فحلت المشكلة بمالها فكلفت الأستاذ جعفر ابراهيم ــ ناظر مدرسة على المعاش ومن سمار المرحوم حامد برهان ــ باعطاء رشــاد دروسا خصوصـية فى العربيــة والجغرافيا والتاريخ . كما كلفت الأستاذ راضى أبو العزم ــ من السمار أيضا ــ باعطائه دروسا فى العلوم والرياضة • وانتزع محمد وألفت من وقتهما المشحون بالعمل ساعات لمسـاعدة شفيق وسهام ، على حين نهضت منيرة بعبء التدريس لأمين وعلى وحدها • وامتعضت مدام ميرفت من الحال من ناحية أخرى فقالت لألفت :

ــ كيف ترضين لشفيق وسهام بالجلوس جنبا الى جنب مع أبناء البوابين والخدم ؟ !

فقالت ألفت :

ــ مدارس اللغات والمدارس الخاصة باهظة التكاليف •

واستاء محمد لأسباب أخرى وهو يراجع كتب التاريخ والتربية الوطنية فضرب كفا بكف وقال لألفت :

ــ انهم يحشون عقول الأولاد بالأكاذيب ••

وتضاعف استياؤه وهو يشـاهد حماس شفيق وسهام وتغنيهما بالزعيم على مسمع منه ، وهو لا يملك ازاءهما أية

مراجعة . حرصا على سلامتهما ، وسلامته أيضا أن يردد أقواله فى المدرسة فيحدث ما لا تحمد عقباه . من أجل ذلك أخفى عنهما سر عوره وعرجه ، وراح يغمغم :

ــ نحن فى زمن القهر والصمت !

ونشأ رشاد وسيما ، ذا طول ورشاقة . أنيقا ، مغرما بأمه وجدته . مغرما بالسباحة ، مع اعتدال فى تحصيل العلم حتى ساواه أبناء خاله وخالته . وأحبته جدته أكثر من شفيق وسهام وأمين وعلى ؛ لقربه من القلب والعين ، ولأفضال أمه المحبوبة ؛ ولأنها عقدت به تحقيق آمالها فى تجديد البيت والمدفن . أجل بدا لعينى جدته ــ مثل شفيق وسهام وأمين وعلى ــ كأنه مخلوق بلا جــذور ، وكأنه لا يتنفس فى جو بيتها القديم . من ذلك أنه ســمع مرة اسم ســـعد زغلول يتردد فى حديث فسأل أمه ببراءة :

ــ سعد زغلول حى يا ماما ؟

وانزعجت سنية رغم أنها بررت جهــله بشتى الأعذار . ومن ذلك أيضا بروده ازاء أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وولعه بعبد الحليم حافظ والأغانى الأفرنجية ، وتساءلت كيف دهمه هذا التمرد على تقاليــد أسرته وذوقها ؟ ! . وأخيرا قالت بتسليم :

ــ انهم مزعجون ولكن لكل جيل شأنه !

ومن شدة حبها لرشاد قالت أيضاً :

ــ التنوع له جماله أيضاً ••

أما شفيق فكان أشبه الأحفاد بحامد برهان ، فاق والده محمد فى ذلك ، وكان ذا صوت مقبول يحاكى به الأغانى الخفيفة ، وبشر اجتهاده بحياة مدرسية ناجحة ، وكان يغالى فى عواطفه حتى يضيق به أبوه أحيانا ، ويحول بينه وبين محاولة التسلط على أخته سهام • وكانت سهام صورة من عمتها منيرة فى جمالها البراق وذكائها اللامع فسر محمد بذلك سرورا لا مزيد عليه • وأما ابنا منيرة فقد عرف أمين بالاجتهاد كما عرف على بالعناد ، واتفقا معا فى طول غير عادى حتى قال سليمان بهجت :

ــ هكذا كان والدى ••

واعتاد محمد ومنيرة ــ وأفراد أسرتيهما ــ أن يتناولوا الغداء كل جمعة فى البيت القديم مع سنية وكوثر ورشاد • توثقت الصلات بين الصغار . ووضح الخلاف بجلاء بينهم وبين آبائهم • وسعدت سنية بالزيارة الدورية سعادة خففت من وطأة آلامها الدفينة وأحلامها الملحة • وبازاء تعنت أحلامها تحول اهتمامها مؤقتا الى ذاتها • ند ذلك عنها دون شعور أو تخطيط ولكنها انساقت اليه خطوة بعد خطوة ، كأنما قررت أن تصون نفسها من شوائب الزمن • مرة لا تعجبها أسنانها

فتمضى الى طبيب الأسنان التنظيف أو الحشو أو الوقاية •
ومرة تتوعك عيناها وهى تقرأ فتذهب الى طبيب العيون فيعد لها نظارة طبية • وعلى حين أن كوثر تتوارى فى زهد وتكبر قبـل الأوان وتتعبد فى حماس فان سنية ــ على تدينهـا وتقواها ــ ضاقت بأول شـعرة بيضاء تحبو وسط شعرها الفاحم • كرهت منظر الشيب ووجدته متنافرا مع ما تحظى به من صحة جيدة • وفى الحال أحيت تقليدا كانت أمها تتبعه فى حياتها وهو صبغ شعر رأسها بالحناء فتحل الحمرة الداكنة المتفردة محل السواد التليد والبياض الوليد • وترى كوثر وهى ترمقها باسمة فتقول بوقار متغلبة على حيائها :

ــ انها وصية جدتك يا بنت !

وهى فخور بنفسها ، بذكائها واطلاعها الدائب ، وتضع نفسها فى موضع أعلى من محمد ومنيرة المتعلمين فى ادراك أبعاد الحياة المعاصرة ، بالاضافة الى موهبة الحلم والحدس التى لم ينعم الله عليها بشىء منها ، ولكنهـا كانت تكره الشيخوخة ومظاهرها وترنو الى شباب دائم مازجة ذلك بحب صاف للحياة ولله خالق كل شىء • وفى لقاءات الجمعة لمست تطلع محمد ومنيرة لاعداد أبنائهما للطب أو الهندسة فخامرها قلق من ناحية حبيبها رشاد وما يستطيع أن يحققه لمستقبله •
وتملت جمال سهام بنت محمد فرأت أنه سيكون هدفا يدور

حوله رشاد وأمين وعلى ، وأنه سيثير متاعب عاطفية فى أسرتها المتحنة بعواطفها دائما وأبدا فسألت الله السلامة ، وعزت نفسها متنبئة بأن صاحب القسمة والنصيب سيفوز بها قبل أن يقع أحد أقربائها فى حبها . وفى حماية العلاقة الأسرية نشبت مناقشات صريحة بين محمد وسليمان بهجت ، تبدأ عادة عندما يذهب الأحفاد للعب فى الحديقة أو للمشى فى شوارع حلوان الهادئة المترعة بالنقاء والجفاف . يقول محمد متأسفا :

ــ حتى أمام الابن لا يأمن الأب أن يفضى بذات نفسه !

فيقول سليمان ومنيرة تضحك منه فى سرها :

ــ ملايين الفقراء لا يعرفون الخوف ، انه عهد الفقراء !

فيقول محمد :

ــ خير من ذلك أن يكون عهد الفقراء والأغنياء على السواء فالله خالق الجميع ومدبر لكل عملا صالحا يرضاه !

ومضت الزعامة الجديدة تتوطد وتعلو من سماء الى سماء حتى وحد سحرها المتطاير ما بين مصر وسوريا فى وحدة باهرة . تجسدت القومية العربية كحقيقة زاحفة مثلما تتجسد فى الخيال كحقيقة تاريخية . وعبده الأحباب ، وسلم به الأعداء مقرين بأنه ليس ابنا للمصادفات أو المؤمرات الأجنبية ولكنه ابن القدر المنذور لتغيير مجرى التاريخ . وانقلبت الرعية الى نسور ودناصير ، وتعملقت الدولة الجديدة ،

وألقت السماء بلسما ليداوى جرح أمة تمرغت فى التراب قرونا تحت أقدام القهر والعدوان • وما مضى وقت يذكر فى تاريخ الأمم حتى انتبه السعداء على جعجعة نيزك داهم على الوحدة فيفتتها فى لحظة مهدئة للأحزان • أى رد فعل عنيف هز الناس المتزاحمين حول الراديو فى شتى المواقع ! قال كل انسان ما يشتهى • وانتفضت من جديد أصوات الشماتة والسخرية • وتلقى الزعيم الضربة بغضب ، ثم ردها بعنف نحو مرمى جديد فانفجرت القرارات الاشتراكية ، وحقق الفقراء نصرا تاريخيا من خلال معركة لم يقتربوا خطوة من ميدانها • وقال الأستاذ عبد القادر قدرى لمحمد :

ــ لم يعد للمحاماة وزن !

كان الرجل فى الأربعينات عضوا بمجلس النواب ، وعين فى الخمسينيات عضوا بمجلس الشيوخ ،وكان خطيبا ذا شأن وبرلمانيا ممتازا ، وهو اليوم يبدو شاحبا هرما دائم الامتعاض ، معدا حقيبته لأى اعتقال محتمل • وأدرك محمد أبعاد الموقف فأفضى به لألفت ، ثم قال :

ــ ستزداد الحياة عسرا •

واهتمت كوثر لأول مرة بما يجرى حولها • لم تمسها الاقرارات فى شىء ولكنها شعرت بأن فوهة المدفع مسددة نحو القلعة التى تنتمى اليها ، وسألت أمها :

ــ ماذا يخبىء لنا الغد ؟

فقالت سنية :

ــ المخبأ فى الغد مكتوب قبل أن تخلق السماوات والأرض !

فقالت كوثر باشفاق :

ــ انى أفكر فى رشاد ، وفيك أيضا يا ماما !

فقالت بهدوء :

ــ انه رحمن رحيم !

وكانت تسائل نفسها هل يدركهم المد ؟ . قالت لنفسها ان قراراته ــ الزعيم ــ تجىء فى صالح الفقراء الذين لا يملكون فلا خوف على محمد ولا منيرة . أما كوثر فالأمر مختلف ، وكذلك رشاد . فهما يملكان أرضا وأنصبه فى عمارات . وأموالا سائلة . وقالت كوثر بقلق :

ــ العهد الذى فعل بأخى محمد ما فعل لا يعفى عن كبيرة !

وراحت سنية تفكر وتفكر أما أحلامها عن البيت والمدفن فقد تراجعت خطوات . وفى أحد لقاءات الجمعة قال محمد لكوثر :

ــ اسحبى نقودك من البنك واحفظيها تحت يدك قبل أن يشمها الوحش .

فقالت كوثر بتلقائية :

ـــ قد يسرقها لص عادى !

فقال لها :

ـــ ابتاعى بها ذهبا وسجاجيد !

عند ذاك نظرت كوثر نحو زوج أختها سليمان بهجت كأنما تستطلع رأى الجهات الرسمية فقال :

ـــ خير الأمور الوسط ٠

ومالت لرأبه داعية الله أن يحفظ مال رشاد ٠ وفى طريق عودتهم بسيارة سليمان بهجت الفيات قال محمد :

ـــ لا أمان لأحد !

قالت منيرة لنفسها تجنبا لاغضابه « ٩٠٪ من الشعب ثملون بالأمل » ٠ وعاد محمد يقول :

ـــ ما هى الا فرصنة والا فلماذا يعيشون عيشة الملوك ؟ !

فقال سليمان بهجت :

ـــ حتى فى روسيا يعيشون كذلك !

فقال محمد :

ـــ رحم الله ابن الخطاب !

وتجلت رؤيا سنية فرآت البيت القديم يضىء بجــدة زاهية ٠ رممت أركانه ، وتجددت أبوابه وسلاليمه ، ووافاه أثاث جديد . أما غرف النوم فحافظت على شرقيتها ، ولكن العصرية شملت حجرات الاستقبال والسفرة ، وبعثت الحديقة

من جديد فاخضرت أرضها وانتشرت فوقها أشجار البرتقال والليمون والمانجو ودوائر الأزهار والورود ؛ أما سورها الطويل فغطى تماما بالياسمين ؛ ولمحت حامد برهان يقوم بعمل البستانى مستردا صحته وبدانته . سعدت جدا ؛ ولكنها سألت البستانى بعتاب :

ــ لم لم تزرع شجرة حناء ؟ !

ولم تبح بحلمها لكوثر أن تتوهم أنها تذكرها بأحلامها فى وقت غير مناسب . وسرعان ما نسيت الحلم تماما عندما أذاع الراديو نبأ ثورة اليمن وموقف مصر منها . وفى أول لقاء عقب الحدث دار النقاش حوله بعد الغداء . قال محمد ساخراً :

ــ أصبحنا أوصياء على ثورات العالم !

فقال سليمان بهجت :

ــ ما هى الا نزهة تحل بعدها اليمن مكان سوريا .

فقال محمد بعناد :

ــ ما زالت أغلبية الشعب حفاة !

ــ لا تنس أنكم كنتم أول من شارك فى الثورة على الامام !

ــ اشتراك الفدائيين بطولة أما الدولة فمسألة مختلفة تماما .

فسأل سليمان سنية مداعبا :

ــ ورأى أمنا الحكيم ؟

ولكن سنية قالت باقتضاب :

ــ صدرى لا ينشرح للحرب ..

فقال محمد متهكما ومعلقا على اشتراك الجيش المصرى فى الحرب :

ــ كأنه قرار اسرائيلى !

وسرعان ما شغلت سنية بأمر آخــر . جعلت تقارن بين منيرة وسليمان بقلق . لم يتجلى الكبر فى وجه منــيرة بسرعة ؟ .. لم يزداد زوجها فتوة وشبابا ؟ . ما زال بينها وبين الأربعين بضع سنوات ولكن سحر جمالها ينطفىء بمعدل غير طبيعى . ولعلها ليست على ما يرام . ان قلبها لا يخطىء . حياتها تدعو للسرور بعكس ما يبدو . أمين وعلى يطويان المرحلة الابتدائية بنجاح ، زوجها نال فى عمله أضعاف أضعاف ما يستحق ، هى نفسها ستعين ناظرة دون نقل الى الأقاليم بفضل أخى زوجها ، ولكن فارق السن بينها وبين زوجها يتسع بسرعة غير معقولة ولا مقبولة . محمد نفسه ألف عوره وعرجه وتراجع رزقه ، وها هو يمضى فى حماية ايمان لا يتزعزع ، وزوجته سعيدة . والتقت عينا منيرة بعينى أمها فقرأت صفحة طويلة وخيل اليها أن سرها انكشف . هل تفضح عيناها مخاوفها

الباطنة ؟ ! • الحق أنها استشعرت تغيرا غير حميد فى قلب سليمان وسلوكه معها • قالت مرة لنفسها وهى وحيدة :

ـ لم أتزوج رجلا واحدا ولكن جملة رجال فى رجل •

واستعاذت بثقافتها فقالت أيضا :

ـ لعل هذا ما يئول اليه الحب !

وتذكرت كلمات ومواقف تهادت اليها على مدى العمر من علم النفس والروايات والمسرحيات والأفلام ، على أنها كرهت أن تفتح أمها ذلك الباب • واذا بسليمان بقول مغيرا مجرى الحديث :

ـ أخيرا قررنا ادخال التلفزيون فى بيتنا !

كانت منيرة من رأيها التريث حتى يعرف أثره على الأولاد ، وتبعتها فى ذلك كوثر ومحمد . غير أن سليمان قال لها :

ـ لا يمكن أن نعيش خارج زماننا ••

وكانت أيضا فى قرارة نفسها مقتنعة بقوله فسرعان ما سلمت • وما ان ذهب الزوار حتى قال رشاد لأمه :

ـ تلفزيون يا ماما ••

ولحق بهما كذلك محمد • وفاقت فرحة الأحفاد بالتلفزيون كل تصور • فقد جاءهم الى مجلسهم بنجومهم المحبوبين . والعالم كله ، فضلا عن زعيمهم المقدس الذى عاشرهم ليلة بعد أخرى • ولما رأت سنية التلفزيون تذكرت يوم دخل الراديو

لأول مرة فى بيتها • كانت أمها ما تزال على قيد الحياة فقالت :

ــ اقتربت القيامة يا أولاد !

وكان هدوء حلوان فى تلك الأيام البعيدة شاملا وعميقا حتى ليستمع فيه الانسان الى خواطره ، لا كهذه الأيام التى مضى بتكدر فيها صفوه باقامة العمائر بل والمصانع • وكانت هى فى غاية من السعادة وصفاء البال رغم أن الوطن لم يعرف الراحة أبدا • ويجيء الزمن كل يوم بجديد ، وتكثر مسراته وأحزانه ، ويتمزق القلب فى معاناة الحنين بين الماضى والحاضر • وأخشى ما تخشاه أن يجيء الأجل قبل أن يتحقق الأمل • ولما انتهى ارسال التلفزيون لأول مرة قالت لكوثر :

ــ سيزورنا العالم كل ليلة بكل ما فيه ••

فابتسمت كوثر ثم نظرت الى رشاد قائلة :

ــ لا يلهينك شيء عن المذاكرة يا حبيبى •

ولكن عصر التلفزيون كان قد بدأ • وثار فى صدور الأحفاد صراع حاد بين الواجب والتلفزيون •

كان لمحمد مكتبة ، وكذلك منيرة ، وأقبل شفيق وسهام ، وأمين وعلى ، على كتب الأطفال وغيرها اقبالا يبشر بالخير ، وسوف يزداد ولا شك بدخولهم المرحلة الثانوية فى العام القادم ، غير أن التلفزيون أثبت أنه منافس خطير فالتهم نصف وقت القراءة فى أول جوله ، ومضى يهدد النصف الآخر • وفى

ذلك الوقت ناهزوا البلوغ فافتهم حيرة مشرقة متحـدية ، وانطلقوا فى العطلة الصيفية مع الصـحاب الى الميـادين والحدائق ودور السينما ، واحتدمت المناقشات ، وطالب كل فرد منهم باستقلاله الذاتى ، فلم يتفقوا على شيء قدر اتفاقهم على القبوع ليلا أمام صندوق الدنيا الجديد بمتنوعاته التى لا نهاية لها ، وضيافته الكريمة التى تمتد من الأصيل الى ما بعد منتصف الليل • فى ذلك المعترك الجديد اعتقد رشاد أنه رجل البيت القديم ، وأخذ يعرف أشياء عن ثروته المحفوظة ويستفحل أمره ازاء ضعف أمه وحب جدته له • ورأته كوثر اتفاقا ذات جمعة وهو يغتصب قبلة من سهام فى ناحية من الحديقة • ورجعت سهام منسحبة من ملعب الأحفاد الى مجلس الجدة والآباء شاردة اللب • وخافت كوثر أن تشكو سهام الى والديها ما ند عن رشاد ولكن الأزمة مرت بسلام • ولما خلت كوثر الى أمها بعد ذهاب الزوار أفضت اليها بالسر فابتسمت سنية متمتمة :

ـــ لعب برىء !

فقالت كوثر :

ـــ سهام أنضج من سنها وعلى منيرة أن تفتح عينيها !

وتفكرت قليلا ثم سألت أمها :

ـــ أينبغى أن أحذره ؟

فكان جواب سنية أن نادت رشاد • أجلسته لصقها فى حنان وقالت مقتحمة الموضوع مباشرة كعادتها :

ـــ قالت لى العصفورة أنك معجب ببنت خالك سهام ؟

فتورد وجهه ولكنه قال بجرأة ناظرا صوب أمه :

ـــ انى أعرف هذه العصفورة !

ـــ ماذا تريد منها ؟

فقال بجرأة أكثر :

ـــ أن أتزوج منها يوما ما •

فابتسمت سنية ولكن كونر قالت :

ـــ الاختيار الصحيح ما يقع فى الوقت المناسب •

ولكنه تجاهل أمه وقال لجدته :

ـــ افعلى شيئا يا ستى !

وفى الجمعة التالية غابت عن المناقشة المحتدمة متحينة فرصة لاعلان طلبها • كانت المناقشة تدور حول « نزهة » اليمن التى انقلبت الى متاهة دموية متعطشة لدماء الأبطال وأموال الفقراء • قال محمد :

ـــ أسمعت مايقال عن أغنية أم كلثوم « آسيبك للزمن » ؟ •• يقال ان الأصل هو « أسيبك لليمن » !

فقال سليمان بازدراء :

ــ اشمتوا كيف شئتم بدماء الأبطال ••

فتساءل محمد جادا :

ــ أيرضى عاقل بذلك وعلى حدوده عدو كاسرائيل ؟

فقال سليمان وقد بات يحلم بوكالة وزارة الزراعة :

ــ اننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط •

ــ بفضل الملحدين !

ــ نحن نأخذ منهم السلاح والعدالة ولا شأن لنا بالحادهم •

ونفد صبر سنية فقالت بصوت جهير مخاطبة محمد :

ــ هدىء روعك وأعطنى سهام لرشاد !

لم يفهم محمد مضمون الطلب لأول وهلة ولما أدركه تناسى انفعاله وقال بسرور خفى :

ــ الله •• الله •• ما زالوا أطفالا ••

فقالت سنية :

ــ ولكنى جادة تماما ، ورشاد هدية ••

ــ وسهام هدية أيضا ولكن اعلان خطوبة الآن أمر يدعو للضحك ••

ــ هل ترفض ؟

ــ أبدا •• لقرأ الفاتحة •• ليكن حجز حتى يجيء الوقت المناسب •• وعلى أن أشاور ابنت أيضا !

وتمت الموافقة وتم الحجز • واستمد رشاد من حبه الناشيء همة أكبر فى العمل ولكن السباحة ظلت حائزة لاهتمامه الأول • وكان جل أصحابه من الرياضيين فكان فى السياسة والدين معتدلا ، ورغم شعوره بالثراء والأصل الا أنه كان لطيفا سمحا محبا للناس تياها فى الوقت نفسه بقوته الجسدية وحسن منظره • وأمل أن ييسر له « الحجز » اشباع حبه فى حدود البراءة ولكن سهام ــ مع ميلها اليه ــ لم تشجعه ، وكفت ــ مرحبة بنصيحة أمها ــ عن مشاركة الأحفاد فى ملعب الحديقة ، منضمة الى مجلس جدتها ، تتابع أحاديث السياسة بفتور ، وتستاء لأقل اشارة تسيء الى الزعيم • ولم تكن صفحة بيضاء فقد انسربت الى أذنيها معلومات محرمة من زميلات فى المدرسة أو فى البيت سرعان ما ربطت بينها وبين ما تسمع من تلميحات فى التلفزيون • ولما كانت علاقتها بأمها علاقة صداقة فقد تجرأت على أن تروى لها بعض النوادر ، التى لا تخلو من مغزى جنسى حتى نصحتها ألفت فى التدقيق أكثر فى اختيار صاحباتها • وبسبب من ذلك قالت ألفت لمنيرة ذات يوم :

ــ هذا التلفزيون يهيىء للبنت الصغيرة معلومات لا تتاح عادة الا لشابة ناضجة !

أدركت منيرة ما تعنيه ولكنها تساءلت :

ــ أليس هذا أفضل ؟

ــ فى الخير نعم ، ولكن ليس فى الشر !

فتفكرت منيرة قليلا ثم قالت :

ــ لعله أفضل أيضا !

فقالت ألفت باسمة :

ــ انك ناظرة ومربية ولكن محمد له رأى آخر !

ــ لا خير فى بناء يقوم على الجهل !

ثم وهى تتنهد :

ــ مشكلة أمين وعلى أنهما يفقدان متعة القراءة يوما بعد يوم ..

فتساءلت ألفت :

ــ أكان الأفضل ألا ندخل التلفزيون فى حياتنا ؟

ــ لا جدوى من قرار يتخذ ضد تيار الحياة ، المسألة هى كيف يمضى التطور بأكبر فائدة وأقل خسارة .. ، الواقع أننا نسىء اليهم بالمدرسة أكثر من التلفزيون ألف مرة ..

ــ هـــذا حق ، وحتى فى السـياسة لا وزن لوعيهـم السياسى ، انهم يؤمنون بالزعيم وبأى كلمة ينطق بها ولا شىء قبل ذلك أو بعده ..

فقالت منيرة بارتياح خفى :

ــ بداية لا بأس بها فى مثل سنهم ..

كانت مثل ابنيها ناصرية لحما ودما وكانت سعيدة بذلك . ليتها تسعد فى حياتها الحميمة كما تسعد فى حياتها العامة . وان يكن الفتور آفة حتمية تقرض جذور الحب ، وان يكن أثر قد تجلى فى حب سليمان لهـا فلم لا يحـدث المثل فى حبها له ؟ ! . لم تصر على مكابدة حب ذلك الرجـل الذى لا تعد مثالبه ؟ . ولم يقف عذابها عند هذا الحـد وانما بات يطاردها احساس وحشى بأنها موشكة على فقده . وكانت سبة المهدى مستسلمة لخواطرها الحزينة عن منيرة عندما فاجأها محمد بزيارة عند أصيل يوم أحد فتوجس قلبها خيفة . سبقها الى حجرة نومهـا الخضراء وجلس أمامها يرنو اليها كمن يتهيأ لالقاء ما عنده ثم قال :

ــ ماما ، بلغنى من مصدر فوق الشك أن سليمان بهجت متزوج من الراقصة زاهية ! .

اختلجت عيناها وراء نظارتها وساد صمت ثقيل . كانت مرتدية روبا بنيا ثقيلا ، متلفعة بشال قطيفة أزرق ، اتقاء لبرد قارص . ولما طال الصمت قال :

ــ تأكدت من الخبر تماما ..

ساءلت نفسها هل تتوارث المآسى ؟ . وكيف يقع هذا لدرة الأسرة ؟ ! . وتملصت من صمتها قائلة :

ـ الأخبار السيئة لا تكذب •

وساءلت نفسها ألا يخلو أحد فى أسرتى من عاهة ؟ ! •

قالت :

ـ الأمر لله ، استمر ••

ـ يجب أن تعرف !

ـ انى خير من يبلغ الأخبار السيئة •• ، وبعد ؟ !

ـ ستطالب بالطلاق ، ولكنى ضد ذلك الى الأبد ••

ـ أوافقك : ما هى الا نزوة طارئة ، ولكن يلزمنا طاقة خيالية لاقناعها ••

ـ فليكن !

وسرعان ما استدعت منيره ، وعلى طريقتها فى مواجهة المصائب قالت :

ـ عندى خبر سيىء يا منيرة ••

كان كالموت يفجر الاحساس بالمفاجأة رغم التسليم بمجيئه الحتمى • لم يجد جديد الا الجهر بالوساوس المعذبة الخفية • لكنها اصفرت غضبا وارتسمت فى قســماتها صورة صارمة • قالت :

ـ أمر يثير التقزز ••

ثم بحسم :

ـ الطلاق ••

غطت سنية وجهها براحتيها متفكرة ثم تمتمت برجاء :

ـ على مهلك !

ـ لا مجال للتمهل أو التفكير ..

ـ التسرع فى قرار مصيرى غير مقبول .

ـ لكنه الحل الوحيد يا ماما ..

فقالت متنهدة :

ـ لا أراه كذلك ..

ـ لا مفر منه .

ـ حدث لى ما يحدث لك ولكننى لم أفكر فيه ..

ـ ذاك زمان مضى ، والملابسات جد مختلفة فأنا ناظرة مدرسة فكيف ألقى الرجال والنساء وهم يعلمون أننى زوجة لها ضرة راقصة !

ـ ما هى الا نزوة ، فكرى بالبيت والأولاد والمستقبل .

وائتمروا جميعا على معارضتها واقناعها بالصبر . والعجيب أن سليمان بهجت صدد للعاصفة ببلادة وثقة ، معتزا بحقه المطلق فى الزواج ، متناسيا عهد حبه القديم . وقال :

ـ علينا أن نتسامح مع أمور يتكرر وقوعها كل طلعة شمس ..

فقالت له بحدة :

ـ افعل ما تشاء ولكن خلصنى ..

فقال متظاهرا بالانزعاج :
ــ معاذ الله •• انك الأصل والأم والأبناء ••
فهتفت بحنق :
ــ هل عملت حسابا للأولاد قبل أن تفعل فعلتك ؟
فقال بمسكنة :
ــ انى أمر بمحنة وأنت عقل كبير ولكنى لن أفرط فى بيتى !

وجدت نفسها وحيدة مع فكرتها ، وفضلا عن ذلك فلم يكن الطلاق بيدها ، وأخيرا قال لها محمد :
ــ رجائى أن تؤجلى البت فى الموضوع شهرا !

فمنحها حلا تدارى به هزيمتها • وسافر سليمان بهجت الى المغرب لحضور مؤتمر زراعى على مستوى البلاد العربية • ولما رجع الى العباسية وجد منيرة قد جعلت من حجرة مكتبها مكتبة وحجرة نوم فأضافت الى ركن منها كنبة تتحول الى فراش عند اللزوم فاطمأن الى أنها عدلت عن التشبث بالطلاق وان قررت أن تنفذه فى الواقع • وشعر فى أعماقه بارتياح خفى فانطلق من أريحية مباغتة يقول :
ــ أنت أنت ، وكما كنت مذ ربط بيننا الحب •

كرهت محادثته كما كرهت النظر اليه • كانت تعانى أتعس لحظات حياتها • اندفن حبها تحت ركام من الحنق والغيرة

والاحساس الأليم بالغدر • وغرقت فى حوار طويل مع نفسها المحمومة • انها تستحق أضعاف ما حاق بها جزاء حبها لرجل تافه • قد تعذر على حبها في سن باكرة ولكنها نضجت فلم تتلاش الغشاوة عن عينيها ، بل نضج الحب أيضا وتفاقم خطره • واغتفر الحب عيوبه ، فقبله رغم أنه ما هو الا حيوان جميل ، بلا عقل ولا روح ، يحركه الطمع والمنفعة الرخيصة • وما حبها الا شهادة ضدها • ملأ القلب دون أن ترحمه قطرة واحدة من الاحترام • هل يصح أن تهيمن على حياتنا قوة عمياء لا معقولة تزرى بما حصلناه من ثقافة وحضارة ؟ ! • انه مخجل بقدر ما هو حقيقة واقعة • على ذاك فعقابى دون ما أستحق • وغمغمت بعذاب :

ـ غجرية ، لا ناظرة ولا مربية !

فلتقتلع من الآن فصاعدا جذور الحب من قلبها الضال • ولتكن مثل أمها فى الكبرياء فلا ترضى بمنافسة امرأة دونها • وقد قرأت لها أم سيد الفنجـــان وقالت وهى تقرب عينيها الضعيفتين من جوفه :

ـ بعد الشدة يجىء الفرج •

واقترحت حيلا من السحر والرقى وزيارة بعض الأضرحة المشهود لها بالفاعليه فابتسمت بمرارة ولم تنبس • وقالت لنفسها :

ــ لا دواء للغدر الا الرفض •

على أى حال برئت من مطاردة القلق الوحشية ، وتحررت من الزام نفسها ما لا يلزم ــ تشبثا بذيول جمالها ــ من رجيم قاس وزينة مبالغ فيها • الآن تستطيع أن تهب نفسها خالصة لعملها الجاد وابنيها الواعدين ، متأسية بأخيها محمد فى صبره وعزيمته وايمانه • أما أمين وعلى فعلى دهشتهما لم يدركا أبعاد المأساة • كانت علاقتهما بأبيهما ودية وسطحية بخلاف أمهما المربية والمرشدة والصديقة • قال أمين لعلى :

ــ بابا أخطأ •

فقال على :

ــ وأساء لماما ••

وكلما ظهرت زاهية فى التلفزيون تفرسا فيها باهتمام وفضول وحنق • وقال أمين لنفسه :

ــ بابا يتزوج للمرة الثانية أما أنا ففقدت سهام الى الأبد :

لماذا ؟ • انه ليس دون رشاد رواء ، وأطول منه ، وأذكى • ولكن الآخر غنى • ولعله لم يحب سهام كما أحبها رشاد ولكنه لعن رشاد وسهام والجميع • وقال لأمه :

ــ الثورة معتدلة أكثر مما ينبغى يا ماما !

فدهشت منيرة وسألته :

ــ أتريدها شيوعية ؟ !

فتساءل :

ـ وما الشيوعية ؟

فترددت قليلا ثم قالت :

ـ هى الالحاد !

فوجم . واعترف فيما بينه وبين نفسه بأن سهام أهون من أن يخسر بسببها دينه . وكانت منيرة تعرف عنه أكثر مما يظن فأحزنها أن تكابد ـ هي وابنها ـ مرضا واحدا ، فأوشكت أن تنهزم أمام دمعة محتدمة . وقالت له بغموض :

ـ ما نتصوره ونحن صغار يتغير ونحن كبار !

أما على فكان بهيم ببلوغه فى واد غريب . عشق بطريقة عشوائية ميرفت هانم حماة خاله محمد . رآها عن قرب فى بيت خاله وهى تزور ألفت مصحوبة بزوجها الأخير الأستاذ حسن علما . لم يكترث لسنها الزاحف نحو الستين ولكن بهرته أناقتها وصوتها العذب وشعرها الذهبى وبشرها المنيرة . سرعان ما عشقها عشقا انفراديا ، وكانت أول امرأة من لحم ودم تحل في قلبه المشغوف بكواكب التلفزيون . وقد نفخته بالغرور عندما قالت له وهى تصافحه :

ـ انك فى طول رجلين معا .

واستوعبت المرحلة الثانوية جميع الأحفاد ، التحق شفيق ابن محمد وأمين وعلى بالقسم العلمى على حين التحقت

سهام ورشاد بالقسم الأدبى • وبدأ رشاد يتكلم عن المستقبل متأثرا بما يقال فى مجلسه مع أصدقائه الرياضيين • حلم بحياة الأعيان ولكن صده عن حلمه قول الزعيم « من لا يعمل لا يأكل » ، وهو زعيم قادر ، وفى وسعه أن يحرم الأعيان الكسالى من لقمة العيش فقال لأمه يوما :

ـ أزرع أرضى وأربى العجول !

فقالت كوثر :

ـ اذن اتجه الى كلية الزراعة •

وفكر وفكر ثم قال :

ـ الكلية الحربية أفضل ••

فتذكرت كوثر ويلات الحروب وقالت :

ـ لا ، لا تلق بنفسك الى التهلكة !

فقال وهو يرنو الى جدته :

ـ الأعمار بيد الله وحده •

لو تيسرت له حياة الأعيان لتزوج من سهام عند الانتهاء من الثانوية العامة ليسكت هذا الجوع الضارى الذى يغرز فى جوانحه خناجر مبللة بالشهد • وفى تلك الأيام خسر الاجتماع الأسبوعى للأسرة حرارة الشباب • ولم يعد يشهده الا محمد ومنيرة وألفت • ومع أن اختفاء سليمان بهجت لم يدهش أحدا الا أنه لم ينقطع تماما ، كذلك سهام كانت تجىء فى أغلب

المرات : ولكن أين شفيق ، أين أمين ، أين على ؟ ! • وتسأل سنية المهدى فيكون الجواب انهم فى رحلة ، سينما ، مع أصحاب ••

ــ ألا يبادلوننى الأشواق ؟

فتقول منيرة :

ــ انهم يحبونك يا ماما ولكن سرقتهم الدنيا :

غزت صداقة جديدة صدر شفيق ممثلة فى عزيز صفوت ، زميل المدرسة : لأب بسيط موظف فى محل تجارى ، متقشف الحياة والمظهر ، لكنه متنوع الحديث ، ويعكس حديثه دأبه على غشيان دار الكتب فأثار حماس شفيق ، بل وسهام أيضا • وكانت ألفت تتابع حديثه أحيانا فقالت لشفيق :

ــ صديقك لا يعجبه شىء !

وقال له أبوه محمد :

ــ انى لا أحب هذا النوع من البشر ، ولا أحب الاختلاط ، ولكنى أنصح ولا أفرض وصايتى ، والعاقل من لا يسلم برأى حتى يمتحنه •

وكان موقف محمد من العهــد قد عرف مع الزمن لشفيق وسهام ، كما عرف لأمين وعلى ، فاستطاع الرجل أن يقول لشفيق أخيرا :

ــ الاسلام هو الدعامة والهدف •

فقال شفيق :

ــ وانى لمسلم يا بابا ولكنى ناصرى أيضا !

ولم يكن عزيز صفوت ضد الناصرية ولكنه لم يكن ناصريا بالدرجة التى يرضى عنها شفيق أو سهام • أما اذا انفرد أحدهما بالآخر فى مقهى فكان حديث المرأة يستقطب جل الاهتمام • كانا يطاردان النساء بأعين جاحظة ، ويقــول عزيز :

ــ حينا بولاق حى شعبى وبه فرص لا بأس بها !

فيقول شفيق :

ــ انها أزمة لا حل لها •

فيقول عزيز متهكما ببنطلونه القديم وقميصه الرمادى الرخيص :

ــ تلزمنا سيارة أو شقة خصوصية !

ويطير خيال شفيق مستحضرا وجوه النساء بعمارة باب اللوق ويظل فريسة للسياط والجمرات • وقد لمح مرة أمين ابن عمته فى ميدان التحرير وهو ماض مع بنت تقاربه فى السن نحو محل دندورمة فأتبعه ناظريه فى حسد • وكان أمين سعيدا جدا بصاحبته التى بدت الى جانب طوله قصيرة • وكانت سمراء ممسمسة رشيقة • انتبه اليها كجارة ، وحام حولها فى محطة الترام يوما بعد يوم حتى شجعته بابتسامة

فتعارفا ، وتقابلا ، وتبـــادلا القبل كلما تيسر ذلك ؛ فصارا حبيبين • وعرف أنها هند رشوان ، ابنة ميكانيكي في ورشة لاصلاح السيارات ، في المرحلة الثانوية مثله ، وكبرى بنات أربع ثلاثتهن في المرحلة الابتدائية • ولم يغتبط بالمعلومات ولكنه تجاوزها فلم تفتر همته ، وكان يتنفس في جو يستبق فيه « الخاصة » في اكتشاف جذور شعبية لهم وقاية من العواصف • أما على فنعم وحده ــ وفي سرية تامة ــ بحب ميرفت هانم • وعلم بأنها كانت زوجة أيضا لجده حامد برهان فلم يثنه ذلك عن حبه ، فاختزنه ضمن هواياته كالتلفزيون والولع بالخلوات • وشـــجعتهما علاقتهما الحميمة بمنيرة على مواجهة الحياة فهي تشاركهما في روح العصر بخلاف خالتهما كوثر وخالهما محمد الذين أطلا عليهما من نافذة زمن ماض مجهول • انهم أبناء اليوم والغد ولا ماضي لهم ، وهم رعايا دولة عظمى مهيمنة على العرب وأفريقيا ، حليفة لدولة عظمى ، ومتحدية لدولة عظمى أخرى ! • انحصرت مشكلتهم الملحة في الجنس وهي ستحل بطريقة ما في حينها • وارتفع صوت في الراديو ينعى أثرا من آثار الماضي ، جهله الجيل الجديد ، وعرفته قلة كرمز للخيانة ، نعى الراديو مصطفى النحاس • لم يترك الخبر أي أثر في الأحفاد • اتسعت عينا كوثر ومنيرة لحظات ثم شغلت كل بما بين يديها • وكانت ســـنية تتمشى

ما بين حجرة المعيشة والفراندا فى جو أغسطس الحار فسرعان ما أسلمت نفسها الى أقرب مقعد وشخصت بعينيها الى الحديقة المهملة فى تأثر شديد ، ثم غمغمت :

ــ آه .. لكل أجل كتاب .. الى رحمة الله ورضوانه .

وتلقت من ذكرياتها الحميمة حزنا هادئا عميقا . أما محمد فقد نبض عرق قديم فى هيكله المتجدد فرأى الماضى والحاضر والمستقبل فى لوحة رمادية تقطر أسى ورحمة . وكان ساعتها يجالس الأستاذ عبد القادر تدرى فى حجرته فرآه يطرح جسمه على مسند كرسيه ويطوق رأسه براحتيـــه ويصمت طويلا ، ثم يردد بخشوع :

ألا يا نفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا

ثم نظر الى محمد بعينين مربدتين وقال :

ــ مات آخر الزعماء .

فلاذ بالصمت مشاركا فى تأثره فقال عبد القادر :

ــ سيشيع غدا فى جنازة لا تليق بمقام راقصة درجة رابعة ..

ولكن الجنازة كانت انفجارا بركانيا غير مسبوق بانذار . شاهدها محمد من شرفة المكتب بشارع صبرى أبو علم فذهل ولم يصدق عينيه . تساءل :

ــ كيف حصلت هذه الأسطورة ؟ !

أى طوفان من جموع بلا نهاية ، أى هتافات تتطاير بشواظ القلوب ، أى دموع تترقرق فى الأعين ، أى حزن يغشى الشيوخ والشباب ، أجل والشباب أيضا • وتساءل محمد :

ــ من أين جاء هؤلاء الشبان ؟

كيف فرضت هذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطتها أيدى الرقباء برداء النسيان • أما زال للوفد مريدون بهذا العدد ؟ • هل انضم اليهم كل محب للحرية ومحروم منها ؟ ! • اضطربت الجموع فى أسى حميم عميق شامل وكأنما تنعى الدنيا والأمل الوحيد • ولمح محمد الأستاذ عبد القادر قدرى تلاطمه الأمواج وراء النعش وهو يلوح بيديه بحماس يفوق سنه ، ولم يكن يتصور أنه يراه لآخره مرة ، فقد اعتقل مساء اليوم نفسه فيمن اعتقل من المشيعين المتحمسين ، وقضى فى الاعتقال عامين ثم توفى عقب الافراج عنه بيومين • واختصت الجنازة بحديث طويل فى الجمعة التالية فى اجتماع الأسرة غير أن محمد كان يدخر خبرا لا يقل عنها اثارة فقال مخاطبا منيرة :

ــ زوجك يبنى فيللا فى المعادى !

فتجلت فى عينى منيرة نظرة انكار على حين تساءلت سنية :

ــ من أين له المال ؟

فقال محمد وهو يغمز بعينه الباقية :

ـ انه يؤجر شققا مفروشة استأجرها وهى خالية ـ بفضل أخيه ـ من عمارات الحراسة ..

ونقل وجهه بين الوجوه ثم واصل :

ـ انه يستأجر الشقة خالية وتتعهد الراقصة بفرشها فهما شريكان !

فقالت منيرة بازدراء :

ـ ما ننال منه مليما فوق نصف مرتبه ..

فقال محمد :

ـ ويقال ان زوجته على علاقة مع المخابرات !

وانتبهوا ذات يوم والجيش يجلجل فى شوارع القاهرة . تابعت منيرة وأمين وعلى منظره المهيب من شرفة شقتهم بالعباسية . ورآه شفيق وعزيز صفوت بميدان التحرير . وسرعان ما ذاع وملأ الأسماع أن الجيش ذاهب الى سيناء ليمنع تهديد اسرائيل لسوريا . وفى الحال تجسدت الحرب كحقيقة وشيكة الوقوع فى أخيلة الناس . وفى البيت القديم بحلوان نظرت كوثر نحو رشاد كأنما تطالبه بالعدول عن نيته فى الالتحاق بالكلية الحربية وتساءلت :

ـ ما هذه الحروب ؟ .. كأنها أعياد موسمية !

ووجمت سنية . تذكرت حلما رأته ولم تحدث به أحدا .

رأت القبر مفتوحا والأجداث داخله متراصة ، وأنها كانت تنادى شخصا ما ليبده ولكن صوتها لم يسمع • همت بالاشارة الى الحلم ولو اشارة غامضة ولكنها عدلت وآوت الى الصمت • أما كوثر فرجعت تقول :

ــ حلوان اليوم بها مصانع حربية !

ففكرت سنية ببيتها القديم وتساءلت :

ــ هل يتحمل بيتنا الانفجارات القريبة ؟

ثم واصلت بشىء من الثقة :

ــ ولكن الرئيس يعرف ما يصنع •

وفى شقة باب اللوق دار حديث الحرب بحضـــور محمد وألفت وشفيق وسهام وعزيز صفوت • تساءلت ألفت :

ــ ماذا يعنى اغلاق المضايق وانسحاب الجيش الدولى ؟

فقال محمد بسخرية :

ــ يعنى أن سفن اسرائيل كانت تمر فى أمان منذ عشر سنوات أو منذ النصر المزعوم ••

ولكن عزيز صفوت أجابها متجاهلا سخرية محمد :

ــ انها الحرب يا سيدتى !

فتساءل محمد :

ــ وجيشنا موحول فى اليمن ؟ !

فقال عزيز صفوت :

ـ نحن أقوى قوة فى الشرق الأوسط ، والرئيس لا شك يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها ••

فكظم الرجل غيظه على حين قالت سهام :

ـ كلماته مليئة بالثقة والقوة !

ظن محمد لحظة أنها تصف حديث عزيز صفوت ولكنه سرعان ما أدرك أنها تعنى زعيمها ، ثم لعن الثلاثة فى سره •

وفى العباسية لاحظ أمين قلق أمه فقال لها :

ـ نحن أقوياء يا ماما •

فقالت منيرة :

ـ انى مؤمنة بذلك وهــو ما يقلقنى ، ليست اسرائيل بمشكلة ، ولكننا اذا اخترقنا حدودها فسنجد أنفسنا وجها لوجه مع الولايات المتحدة ••

فقال على :

ـ معنا الاتحاد السوفيتى !

فتساءلت :

ـ اتظنه يقدم على دمار العالم من أجلنا ؟ !

فقال على باصرار :

ـ ولا الولايات المتحدة تقدم على دماره من أجــل اسرائيل !

فاعترفت منيرة قائلة :

ـ الحق أنى فى غاية القلق ..

وجاء سليمان بهجت فى زيارة طوارىء . كان يزورهم من حين لآخر وظلت علاقته بابنيه ودية وسلبية معا ، أما منيرة فكانت تعامله معاملة رسمية . استمع لخواطرهم عن الحرب ثم قال بنبرة العالم ببواطن الأمور :

ـ لا داعى للقلق ألبتة ، وفى اعتقادى أنه لن تقوم حرب ..

ثم بعد هنيهة صمت :

ـ ولكن مبالغة فى الحيطة أود أن تقيموا معنا هذه الأيام فى الزمالك فهى آمن من العباسية ..

فقالت منيرة بهدوء وبرود :

ـ لك الشكر ، لكننا لا ننوى هجر مسكننا ولا نجد ضرورة لذلك .

فلم يضايقها بالحاحه ، ولعله لم يتوقع قبولا من الأصل ، وقال :

ـ روح البلد عالية جدا ..

فسأله أمين :

ـ ألسنا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ؟

فأجاب بيقين :

ـ هذا مفروغ منه ولكنى لا أتوقع حربا على الاطلاق !

وقضى الأمر • فى الساعة التاسعة من صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ دوت صفارة الانذار وقضى الأمر • بدا كل شىء هادئا فى القاهرة عدا جموع تجمهرت حول الراديو تتلقى أنباء عن انتصارات وطنية خارقة • وتابعت منيرة الأنباء فازدادت قلقا وساءلت نفسها :

ــ ما لنا لا نسمع عن هجوم ؟ !

ومرق محمــد وألفت الى محطة لندن وصوت أمريكا فدهمتهما أخبار أخرى وتساءلت ألفت :

ــ ماذا يجرى ؟ •• أتصدق هذا ؟ !

فقال محمد وعواطف متضاربة تتنازع قلبه :

ــ أصدقه تماما ، ما هو الا بناء من الورق يقوم على الكفر والفساد ••

وأخيرا أعلن عن بيان سيذيعه الرئيس على الشعب • استقر الكبار فى البيوت وانتشر الشــباب فى الشــوارع والمقــاهى • انتظر الجميع ــ ملهوفين ــ البيان متوترين بانفعالات محتدمة . مقبة أعينهم فى الظلمات عن بارقة أمل • أليس ثمة رابطة وثيقة بين لسان الرئيس والأمل ؟ • أجل انه لا ينطق الا مرسلا باقات من الآمال المنعشة • لكنه ــ ذلك المساء ــ طالعهم بوجه جديد ، وصوت جديد ، وروح جديدة • اندثر رجل وحل محله رجل آخر • رجل آخر يحدث عن

نكسة ، يشير افلاسا ، يندب حظا ، يحنى قامته العملاقة لواقع صارم عار عن الأحلام والأمجاد ، ويلتمس مخرجا بائسا فى التنحى ، مخليا مكانه الشامخ المتهدم لخليفة أراد له أن يرث تركته المثقلة باللامعقــول والعار • خرقت الحقيقــة الوحشية القلوب الملتاعة وترددت بأصحابها الى قاع الهاوية ، فاندفعت دموع من الأعماق الجريحة الى الأبصار الزائغة • بكت سنية وكوثر أيضا بكت • بكت ألفت وسهام على حين تحجرت عين محمد ، أما منيرة فغشيها بكاء طويل • واندفع شــفيق وأمين وعلى وعزيز فى طوفان الجموع الصاخبة الغاضبة المحتجة يخوضون ظلاما دامسا ، يتحدى صراخهم أزيز الطيارات وطلقات المدافع المضادة ، وتطالب بالتنحى عن التنحى • وتتابعت أيام محمومة جنونية مليئة بالانفعالات والتحرشات والاعتقالات والانتحار • وبقى الرئيس وانتحر القائد ، وفرغ الناس من متابعة الأحداث السياسية ليفتحوا قلوبهم لهلوسة تاريخية فريدة وليشاركوا بلذة جنونية معذبة فى حفلة زار عصرية شاملة • ماذا حصــل ؟ ، كيف حصل ؟ ، لماذا حصل ؟ وأمطرت السماء شائعات ، وسخريات ، ونكات ، ونوادر ، ودموعا • وتفشت أعراض مرض مجهول عبدا وكأنه لا شفاء منه • وشهد اجتماع الأسرة جميع الأجيال كالماضى البعيد • بدا الكبار محزونين والصــغار حيــارى مبهوتين •

وحزنت سنية لنفسها كما حزنت لأولادها وأحفادها • تذكرت حلمها الكئيب ، تذكرت حامد برهان وجهاده الصغير الذى عاش تياها به ، استرقت الى محمد نظرة اشفاق ، رنت الى الأحفاد بشوق وعطف ، وأصغت الى صوت خفى تردد فى أعماقها يطالبها بأن تيأس تماما من تجديد بيتها وحديقته • من يفكر فى هذا الترف وهو فى جوف النيران المؤججة ؟ • وتمتمت :

— يا لها من أحزان !

فقال محمد ممتعضا :

— المسألة أننا نسينا الله فنسينا الله

فقال سليمان بهجت وهو قاعد جسدا بلا روح :

— ما هى الا مكيدة أمريكية !

فهتف محمد :

— لا عذر عن الغفلة والحماقة ••

ثم تنهد فى غيظ :

— وتخرج الجموع للتمسك به بدلا من المطالبة بمحاكمته ؟

ونظر صوب ابنه شفيق متسائلا :

— ماذا دفعك للاشتراك مع الجموع ؟

فأجاب شفيق بوجوم :

ـ لا أدرى بالضبط ؛ ربما خيل الى أن الحياة لا يمكن أن تمضى بدونه !

وقال أمين :

ـ قلنا ان هدف العدو اقصاؤه فتمسكنا به تحديا لقرار العدو .

فضحك محمد بجفاء ساخر :

ـ وهل يطمع العدو فيمن هو خير منه ؟ !

وصمت لحظات ثم واصل :

ـ أعترف لكم بأننى سررت أيضا لبقائه ، أجل ، يجب أن يبقى على رأس الخراب الذى تسبب فيه ، ليعانى معنا ؛ وليتحمل مسئولية اصلاحه ، هذا خير من الهرب الى الخارج والتمتع بحياة أصحاب الملايين !

صمت شفيق وسهام وأمين وعلى ورشاد كأن الأمر لم يعد يعنيهم ، أو أن « ناصريتهم » غرقت فى مستنقع من الحيرة . تخبطوا فى الظلام صامتين . أما سليمان بهجت فتردد طويلا قبل أن يقول :

ـ ثمة كلام عن تكوين جديد للجيش على أسس جديدة !

فأطلق محمد ضحكاته الجافة ثانية وقال :

ـ ما نحن اليوم الا اقليم تابع للاتحاد السوفيتى ، لم تنتصر اسرائيل والولايات المتحدة فقط ولكن الاتحاد

السوفيتى انتصر أيضا ، أذنابه يقولون اليوم بكل قحة أن الاشتراكية أهم من سيناء ..

وغمغمت سنية فى أسى :

ـ لنا الله .

وتساءلت سهام :

ـ أينتهى الوضع على هذه الحال ؟

فخيل الى سليمان بهجت أنه مطالب باجابة فقال :

ـ كلا طبعا ! .. سنجد أيضا فرصة لاعادة النظر فى شئوننا ، ثمة عوامل فساد كانت تنخر فى عظامنا ، يقال ان الرئيس نفسه كان ضحية من ضحاياها !

فقال محمد حانقا :

ـ قال انه مسئول عن كل شىء ، لعله أول صدق ينطق به فى حياته !

ففقد سليمان بهجت بعض أعصابه وقال :

ـ أعداء النظام شامتون كأن المصيبة حلت بوطن آخر ..

فلوح محمد بيده محتجا وقال :

ـ انهم محزونون لا شامتون ، لقد بذل الجيل الماضى ما استطاع حتى وقت للاحتلال البرطانى وقتا ثم جاء الأبطال يحلمون بانشاء امبراطورية فانتهى سعيهم باستيراد احتلال جديد مارسته أصغر وأحدث دولة فى العالم ، هى النتيجة

الحتمية للجهل والغرور والفساد والاستبداد ، واليوم تفصح الوجوه فلن ترى توازنا واستقرارا الا عند الشيوعيين !

ــ لسنا شيوعيين على أى حال •

ــ ولكنكم ذيول لهم ، لو صدقتم فى قتال اسرائيل عشر صدقكم فى قتال المسلمين لكتب لكم النصر ••

فقال سليمان بضيق :

ــ الشعب الكادح يعرف بغريزته كيف يهتدى الى رجله ••

فجاوز محمد حلمه قائلا .

ــ لا تحدثنى عن الشعب الكادح ، وحدثنى عن الشقق المفروشة !

اصفر وجه سليمان وأفصحت عيناه عما ينذر بافســـاد اللقاء كله غير أن سنية قالت بصوت مسموع :

ــ لا •• لا أسمح بهذا ، نحن هنا أسرة ولا مكان بيننا لمعركة ••

وعلت الكآبة المجلس والمأدبة ، ولم ير سليمان بهجت بعدها فى البيت القديم ، لا بسبب نزاعه مع محمد فقط ولكن لأن التحقيقات أدانت فيمن أدانت زوجته « زاهية » مثبتة استغلالها لنفوذها المستمد من المخابرات لاثراء غير مشروع فقضى عليها بالسجن خمس ســـنوات • وأصابت ضربات التطهير أخا سليمان الضابط فقضى عليه بالسجن أيضا ، ووجد

سليمان نفسه وجيدا ضعيفا بلا سند مطاردا بسوء السمعة مما اضطره الى تقديم استقالته • وفى ذلك الوقت فرغ من بناء فيللا المعـادى فأقام بها وحده منتظرا عودة زاهية • وأنعش أمل قلب سنية الجريح فتصورت أن الأحداث تمهد لعودة العلاقة بين سليمان.ومنيرة الى سابق عهدها ولكن منيرة قالت لأمها بصدق :

ــ لقد انتهيت منه تماما !

ولم يختلف هو عنها فى ذلك فوهبت منيرة حياتها كلها للعمل ولابنيها • وقد ترقت مدهشة وازدادت جدية فى حياتها ، واذا بها تحج بصحبة محمد ذات عام ، وتواظب بعد ذلك على الفرائض مثل كوثر منتمية الى أسـلوب أمها فى التدين لا أسلوب محمد ، محافظة فى الوقت نفسه على « ناصريتها » ملبية نداء العاطفة فى ذلك أكثر من العقل ، ورافضة التخلى عنه فى سوء حظه ، قالت :

ــ ما هو الا ضحية للاستعمار العالمى !

وسارعت اليها الكهولة مثل كوثر وأكثر ولكنها ــ من حسن الحظ ــ لم تلحظ تغير وجهها الجميل كما لاحظه الآخرون ، كما أنها لم تعد تستعمل أى أداة من أدوات الزينة • ووقعت مظاهرات الطلبة مفاجأة لها كما كانت مفاجأة لكثيرين • أنها أول تحد داخلى يواجه الزعيم من أخلص أبنـاء قبيلته •

تردد الهتاف بسقوطه ، وتطـايرت فى الجو السـخريات المسجوعة • وتلقت الأنفس :حكم الشعب ولمعرفة الماضى على حقيقته • وجدت منيرة نفسها ممزقة ، ففى جانب يتظاهر أبناؤها ، وفى الجانب الآخر يقف زعيمها • وعجبت لموقف أمين وعلى كما عجبت لموقف شفيق وسهام • وسألت وهى تقلب عينيها فى وجهى ابنيها ·

ــ أليس هو الرجل الذى ترتم لابقائه ؟

فقال أمين مرددا ما أفعم رأسه :

ــ يجب أن يكون الدور الأول للشعب !

ــ أتريد رجلا آخر ؟

فهز منكبيه قائلا :

ــ لا يوجد رجل آخر !

وتساءل على فى حيرة :

ــ ما جدوى النحقيق ؟ !

فسألت بالحاح :

ــ أترومون تصفية الناصرية ؟

فأجاب أمين :

ــ لسنا رافضين ولكننا عير راضين !

ــ انكم محيرون !

فقال على ضاحكا :

ـ نحن حيارى !

وكانت الجامعة تستقبلهم واحدا بعد آخر • اثنان منهما الا ما أراداً فالتحق رشاد بالكلية الحربية رغم معارضة كوثر ، والتحقت ساهم بكلية الآداب مستهدفة قسم اللغة الانجليزية • أما شفيق وأمين فقد أرادا الطب ولكن التنسيق حولهما الى الهندسة ، وأراد على الهندسة فمضى الى كلية العلوم • وفى الجامعة دهمهم جو فائر بالبلبلة صاخب بالأصوات الجهيرة المتضاربة • الدين •• الدين •• الدين ، ما انتصرت اسرائيل الا بالتوراة فالحرب يجب أن تكون بالقرآن • الماركسية •• الماركسية •• الماركسية ، هى التى تقتلع مجتمعا منهرئا من جذوره الخرافية لتشيد فوق أنقاضه مجتمعا علميا عصريا ، العلم •• العلم •• العلم •• ما انتصرت أسرائيل الا بالتكنولوجيا ، وأملنا الحقيقى فى العلم والتكنولوجيا • الديموقراطية •• الديموقراطية •• الديموقراطية ، فما خسف بنا الأرض الا الاستبداد • الناصرية •• الناصرية •• الناصرية ، وما عليها الا أن تخلص لمبادئها حتى نخلص لها • دوامة لا تسكن ولا تهدأ ، والقلوب ثقيلة ، والأنفس مريرة ، والأفق متجهم ، والشهوات مكبوتة ، وأحلام اليقظة مرهقة • وقال شفيق لأبيه ذات مساء :

ـ نحن جيل من الضحايا ، انى أصدق من يقول ذلك ••

فسأله محمد :

ـــ ضحايا لمن ؟

ـــ اجميع من سبقنا !

فتغيظ محمد وسأله :

ـــ ماذا تعرف عن مصر ما قبل الثورة ؟

ـــ دعنا من هذا وخبرنى كيف أريد أن أكون طبيبا فتأمرنى الحكومة أن أكون مهندسا ؟

فقال محمد بامتعاض :

ـــ اعرف وطنك ، اليك مكتبتى فهى تحت أمرك ..

وعرف شفيق صديقه عزيز صفوت أكثر فأدرك أنه ماركسى . لم يفطن لذلك من قبل لقلة معلوماته من ناحية ولتركيز عزيز على نقد أوضاع شتى دون كشف النقاب عن هويته من ناحية أخرى . يلاحظ الآن أن الهزيمة لم تنل منه عشر معشار ما نالت من الآخرين فتذكر قول أبيه عن « توازن الشيوعيين » ، ونظر الى عزيز صفوت نظرة غريبة وسأله وهما سيران بلا هدف وسط المدينة :

ـــ لعلك ممن يفضلون الاشتراكية على سيناء ؟ !

فارتسمت ابتسامة فى وجه عزيز الشاحب وقال .

ـــ التوجه نحو الاشتراكية هو المكسب الحقيقى لثورة يوليو ..

فقال شفيق وهو يرمقه باستغراب :

ـ أنت ماركسى !

وراح الشاب يتحدث عن الهدم والبناء من جديد ففتنت الفوضى خيال شفيق واستجابت لها نفسه الحائرة ، غير أن عزيز انقض على المقدسات بسخرية فاجرة لم يتوقعها شفيق فأحدثت عنده رد فعل مفاجىء رغم خفة تدينه • وبدافع من العناد والغضب والرغبة فى الجدل والاحتجاج على التطرف عارض آراء صاحبه وكأنه صاحب موقف بالرغم من أنه لم يعرف من المواقف الا الناصرية التى زعزعت الهزيمة أركانها • ولما شبع من الجدل قال :

ـ انى فى حاجة شديدة الى امرأة !

فقال عزيز ضاحكا :

ـ توجد فرصة حسنة •

اعترف له بأنه يحوز صديقة . وأن لها أختا قد يجد فيها مطلبه • وزاده بهما علما فقال انها من بنات المدارس ، وأن أمهما أرملة فقيرة تتعيش من شراء الفاكهة نصف الفاسدة بأبخس الأثمان وتبيعها للفقراء • وأنها لم تضن على ابنتيها بالتعليم ولكن الفتاتين اعتمدتا على نفسيهما فى الاستمرار فيه بلا موافقة أو رفض من ناحية الأم • قال عزيز صفوت :

ـ لى حجرة مفروشة فوق السطح ، والتكاليف معقولة •

وذهب به ذات يوم الى سطح البيت بعطفة بهان ببولاق •

اخترق حوارى كئيبة لم يألفها من قبل ، ولم يتنفس بارتياح الا فوق السطح ، ومد بصره جنوبا متجاوزا بضعة أسطح فرأى النيل يجرى فى شموخه ورأى شاطئه الآخر المجلل بالأشجار والقصور والعمائر فى الزمالك • ومضى به عزيز الى الحجرة المفروشة فدهمه منظرها بالوحشة ! • طولها أربعة أمتار وعرضها متران ، على يسار الداخل كنبة وفى الجدار المواجه للداخل كوة وثمة مسمار مغروز فى الجدار الأيمن وأرضها مغطاة ببلاط معصرانى أغبر اللون • وجم شفيق ولكن الآخر لم يلق اليه بالا ، وما لبثت أن جاءت زكية محمدين فى بنطلون رمادى وقميص أزرق كاشف عن أعلى الصدر مفروقة الشعر مقبولة القسمات والهيئة مفصلة الحمولات • تم التعارف والرضى ، ولدى ذهاب عزيز أحبها حب الجائع المحروم • تحدثت بطلاقة وعفوية كأنها فى بيتها فخامره شىء من الأسف ولكنه ضمها الى قلبه بقوة واستماتة • وتواصلت العلاقة بترحيب وسعادة من ناحيته كأنما بلغ بها أقصى ما يتمنى • وحفظ لعزيز صفوت جميله ، ولكن ذلك لم يمنعه من معاندته كلما تهجم على الاسلام ، أجل وجد نفسه يدافع عن الاسلام كأنه من تياره • ولاحظ أمرا أزعجه • قرأ أحيانا فى عينى أخته سهام اعجابا بآراء عزيز صفوت • انفرد بها ذات مساء وسألها :

ــ لعلك لا تدرين أنه ماركسى ؟

فحدجته بنظرة محايدة ولم تجد ما تقوله فسألها :

ــ أتحبذين آراءه الشيوعية ؟

فقالت بعد تردد :

ــ المسألة أنها جديدة ومثيرة !

ــ هل فرغت من الناصرية ؟

ــ لا أظن ..

ــ هل هان عليك الاسلام ؟

فتفكرت قليلا ثم قالت :

ــ غير معقول .

فقال وكأنما يصف نفسه :

ــ انك لا تدرين لنفسك رأسا من رجلين ..

وثمة مفاجأة أخرى كانت ترصد فرصتها ، فما كان رشاد يخطر فى بزته الرسمية كطالب فى الكلية الحربية حتى صارح أمه وجدته قائلا :

ــ آن لى أن أعلن خطبتى لسهام .

وتحمست كوثر لذلك بدافع لم تتبينه بل تمنت أن يتــم الزواج فى أقرب وقت ، ورحبت بذلك سنية أيضا فحدثت به محمد وألفت . غير أن ألفت عندما فاتحت سهام فى الموضوع قالت الفتاة :

ــ آسفة !

فاستقطبت أنظار ألفت ومحمد وشفيق ، وسألتها ألفت :

ــ أتريدين مزيدا من التأجيل ؟

فقالت بصراحة :

ــ لا أريدها على الاطلاق !

ذهل الجميع وتبادلوا نظرات مستنكرة ، وقال محمد :

ــ ولكنك كنت موافقة طوال الوقت !

فقالت بهدوء وتصميم :

ــ الأمر كله كان عبثا ، ثم تبين لى أننى لا يمكن أن أوافق ..

هتفت ألفت :

ــ رشاد شاب ممتاز وغنى ووسيم وابن عمتك . فكرى بما سيحدثه الرفض !

فقالت بتصميم أشد :

ــ أى شىء أهون من الكذب فى مصير حياة .

فقال محمد متأوها :

ــ انى رجل مؤمن . والمؤمن يؤمن بالزواج أيضا . ولو كان لى مال زوجت شفيق وهو رجل فكيف بالأنثى ؟ !

فقالت بصوت متهدج :

ــ لا أريد يا بابا ..

غلبه الاشفاق ٠ تنهد قائلا :

ــ الأمر لله ، سأسلم بما أكره ، ولكنى حزين ، على نفسى وعليك ، على الأيام ، كل ما حاق بنا ، لقد ماتت جاذبية الأرض وتطايرت الأشياء فى الفضاء !

وبطبيعته التى تؤثر المواجهة سافر إلى حلوان ٠ جلس فى حجره المعيشة بين أمه وكوثر ورشاد وقال :

ــ انى حزين يحمل رسالة حزينة !

وصب عليهم الحقيقة واضعا نفسه تحت شلالها كأنه ضحية ــ مثلهم ــ من ضحاياها ٠ وقال :

ــ لم يعد لنا من سلطان على أولادنا !

جفت حيوية أرواحهم ٠ تلقى كل منهم لطمة داهمة ٠ ولم ينطق أحد بكلمة فتفشى الفتور حتى ذهب محمد ٠ وسرعان ما بكت كوثر وهى تقول :

ــ ابنى خير شباب الأسرة !

فقالت لها سنية :

ــ سيغنيك بمن هى خير منها ٠

أما رشاد فمضى من توه إلى شــقة باب اللوق ؛ فأخلى ما بينه وبين سهام ، وسألها :

ــ ماذا غيرك بعــد أن سمحت لى بأن أحبك وأعقــد بك آمالى ؟

فقالت سهام بصوت خافت :

ـ أعترف بخطئى وأسفى ، انك شاب رائع ، ولكن لا حيلة لى ..

فازداد تعاسة وسألها :

ـ أيوجد شخص آخر ؟

فأجابت بوضوح .

ـ كلا .

فصمت قليلا ثم قال :

ـ اذا كان الأمر كذلك فلم لا نجرب حظنا ؟

فقالت بحزن :

ـ آسفة ، انس الموضوع كله وسامحنى ان أمكن ..

وانفرد محمد بألفت وسألها :

ـ هل يوجد شخص آخر ؟

فقالت :

ـ أبدا ، انها لا تخفى عنى سرا .

فهتف الرجل :

ـ هذا أدهى وأمر .

ولكن كان ثمة « آخر » . غير أن سهام لم تشر اليه لأنه لم يعترف بعد ، وقد تكون واهمة . فمما لا شك فيه أن ميلا خفيا دفعها باستمرار نحو عزيز صفوت ! . انه يراسلها

بنظرات خاصة أبلغ من أى لسان • مضى زحفه وئيد! منواصلا حتى تفتح قلبها للحب ، وعند ذاك فقط عرفت أنه شيء آخر غير الميل الذى وجدته ذات يوم نحو رشـــاد • وكان رشاد أقوى جسما وأجمل صورة الى وزنه المالى المعترف به • عزيز نحيل شاحب الوجه ذو ملامح شعبية ومظهر فقير ولكن سحرها نور يشع من عينيه ، وجدة أفكاره وحيوية روحه وذكاؤه البين • والحق أن عزيز ومض فى رأس ألفت دقيقة ولكنها سرعان ما استبعدته كفرض ينعذر قبوله •• كان يزور شفيق كثيرا ويرى سهام كثيرا ، وفكرة حجب ابنتها لم تخطر لها ببال ، وكانت هى تجالسهم أحيانا وكذلك محمد • ثم الم يسلم محمد نفسه بضرورة الحاقها بالجامعة ؟ • قنع بضرب المثل الاسلامى لهم فى حياته اليومية وحثهم على تأدية الفرائض وما يتسع له وقتهم من ثقافة دينية ، مسلما بعد ذلك أمره لله • لعل أمين — ابن منيرة — كان الأوحد فى الأسرة الذى شمت برشاد فى محنته لسابق شغفه بسهام • وظن أن فرصة طيبة تسنح له من جديد فعبر فوق علاقته بهند رشوان وأكثر من التردد على مسكن خاله محمد ، وراح يتودد الى سهام ، ولكنه شعر منذ أول خطوة بأنها لا تشجعه ألبتة فلم يتماد فى تجربته وقال لنفسه ساخطا :

— ستكون صورة طبق الأصل من ميرفت هانم !

وندم على شروعه فى خيانة هند رشــوان فكفر عن زلته بالتأكيد على اظهار حبه لها وتعلقه بها • وبالفعل دخل طورا جديدا من علاقته اتسم بالدرارة والجدية • ومضى يفكر فى المستقبل ، وفى العقبات التى تعترض طريق الزواج مثل اختلاف مستوى الأسرتين ، والانتظار الطويل الذى لا مفر منه ، وتكاليف الزواج التى لا مفر منها أيضا • وعند ذاك تذكر ما يقال عن ثراء أبيه ، ولكنه لم ينس « زاهية » التى ينتظر خروجها من السجن ، والتى يقال انها شريكته به انها القوة الحقيقية وراء استثماراته • بالاضافة الى ذلك فان نفوذ عمه انتهى الى الأبد بدخوله السجن • أما عن دخل أسرته الخاصة فانه بالكاد ييسر لها معيشة عادية أبعد ما تكون عن الترف • وكم ود أن يخلو بهند رشوان لعله يروح عن أعصابه بطريقة فعالة وآمنة ولكن أقصى ما أتيح له أن يختلس القبــلات واللمسات فى شوارع العباسية الجانبية • ولم يخل فى حياته العامة من عاطفية أيضا فكان أقل الأحفاد تمردا على الناصرية ، وأعجب بأمه لتمسكها بها ، وربما من أجل ذلك شعر بمأساة أمه الخاصة أكثر من أخيه على ، وآنست منيرة منه ذلك فاختارته بخيالها ، وأيضا عقب رجوعها من الحج شاركها فى الاهتمام بدينه متبعا أسلوبها متحاشيا أسلوب خاله محمد • ولاحظ خاله محمد رجوعه الى ناصريته فقال له :

ــ انى لا أفهمك يا أمين !

فقال أمين :

ــ معذرة ، لا أستطيع أن أنسى الخلاص من النظام الملكى ، الاصلاح الزراعى . تمصير الاقتصاد ، التأميم ، التعليم المجانى ، مكاسب العمال والفلاحين ، فلا الهزيمة ولا الفساد ولا الاستبداد سينسينى ذلك !

رغم ذلك لم يعد حماسه بالحماس الذى كان لكنه كان شيئا ما بخلاف أخيه على . على خسر كل شىء وخسر نفسه أيضا . طحنته الخيبة ، جفت ينابيع أحلامه ، حدس طنين العداوة حتى فى الخلوات وفى الليالى القمرية . وكما صمم قديما ألا يقتنى قطة عقب فجيعته بموت قطة محبوبة فقد عاهد الله على تجنب المذاهب والزعامات عقب الهزيمة مصمما على الرفض وحده . وحزنت منيرة على حاله فسألته مرة :

ــ ماذا تحلم عن المستقبل ؟

فقال بعصبية :

ــ ليتنى أجد عملا فى بلد أفضل !

فسألته بعتاب :

ــ وتهجر وطنك ؟

فقال بوضوح وتأكيد :

ــ فى ألف داهية !

فقالت محتجة :

ـ ليس فى أسرتنا تفكير من هذا النوع !

فقال ساخرا :

ـ انا فى السجن عم وزوجة أب !

وفى تلك الأيام توفى الأستاذ حسن علما آخر أزواج ميرفت هانم • اشترك على مى تشييع جنازته وخياله يحوم حول أرملته • خفق قلبه المحروم ونشط خياله الذى لم تبرحه المرأة مذ غزته فى بيت خاله • وتبلورت وراء ارادته اندفاعة متربصة مغامرة • ولأنه يعيش تحت مظلة من الاستهتار فقد اكتسب سلوكه جرأة غير معهودة • راح يعد الأيام حتى وافى يوم الأربعين ، ثم سافر يوم الجمعة التالى الى حلوان مساء اتقاء للأعين • ودق جرس الشقة التى اتخذ جده احمد برهان منها عشا لعشقه وزواجه • وعرفته مرفت هانم من أول نظرة فى بنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض المفتوح الطاقة لاستقبال نسمات الربيع • دهشت ولكنها رحبت به قائلة :

ـ أهلا ••

فتبعها الى حجرة الاستقبال وهو من الانفعال لا يرى • وجلس قائلا :

ـ جئت لأعزيك ولو متأخرا ••

فشكرته وهى تتفرس فى وجهه بارتياب • كانت ترتدى

فستانا أسود يكشف عن ذراعيها وأكثر ساقيها ، ولم يمنعها الحداد من العناية بشعرها ووجهها فشع منها ذاك النور الباهر • ربما بدت أصغر من سنها ولكن العين لا تخطىء كهولتها خاصة كراميش الفم وما تحت العينين ، ولكنه كان ينشد هذه الصورة دون غيرها • وتذكرت هى نظراته التى استوعبتها فى أكثر من زيارة لبيت ألفت فلم تشك فى أن وراء الزيارة ما وراءها • أيمكن ذلك حقا ؟ ! • وما عسى أن تصنع به ؟ • ودل ترحيبها به وتقديمها القهوة على أنها تترك الباب مواربا حتى ترى ما يجىء به الغيب • وكان من ناحيته عازما على ألا يتجاوز التمهيد ، فنظر الى الصالون المموه بالطلاء الذهبى وقال :

ــ ما أجمل ذوقك !

فقالت باسمة :

ــ انه يشبه طاقم مامتك •

وكان لمح على الجدار صورة المرحوم مكللة بغلالة سوداء فلم يدر ماذا يقول • ولم تشأ المرأة أن تزيد من حرجه فسألته :

ــ هل زرت جدتك ؟

فأجاب مرتبكا :

ــ كلا •

ـ لعل أحدا لمحك ؟

ـ كلا .. نور الطريق لا يسمح بذلك .

ـ انى أشكرك على أى حال .

عند ذاك قام وهو يتساءل :

ـ هل تسمحين لى بالزيارة عند سنوح الفرصة ؟

فقالت باسمة :

ـ انه بيتك بغير استئذان ..

رجع من حلوان وهو يقول لنفسه انها ذكية ولا مانع لديها . وشغل بعد ذلك بامتحان آخر العام فى الكلية ، ثم استقبل عطلته الصيفية . وبلا تردد كرر الزيارة بجرأته المقتحمة ، وجلس وهو يقول :

ـ منعنى الامتحان من زيارتك !

كأن الزيارة واجب غير قابل للمناقشة . وسألها وهو يلاحقها بنظرات محمومة :

ـ وحدك دائما ؟

فأجابت بأسى :

ـ تقريبا ..

وأفصحت نظراته عن رغبته بقوة لا يفى بها كلام . وقال لنفسه انها تفهمنى وتنتظر . وقال أيضا لو كذب ظنى فلن أخسر من الدنيا أكثر مما خسرت . ولما جاءته بقدح ليمون

مد يده فقبض على ساعدها • حدجته بنظرة متسائلة وهى مقطبة فشــدها اليه بقوة ثم أحاطهـا بذراعيه • ســألته كالمحتجة :

ـ أأنت فى وعيك ؟

فأجاب وهو ينهض بطوله الفارع :

ـ لم أفقده كله بعد •

هكذا شرعت مرفت هانم فى غرامها الأخير • وسجلت تلك الليلة أول كامة فى صفحته الموردة ، وحقق به على حلما قديما يائسا ، أما مرفت فقدمت على مذبحه ولعهـا العارم بالحياة والشباب • والعجب أنه سعد مثلما سعدت وأكثر • والأعجب أن سيطرتها عليه فاقت سيطرته عليها ، فوفقت دائما الى نفخه بالخيلاء والأريحية والجنون حتى باتت المستقر الوحيد فى الدنيا الذى يجد فيه ذاته وشفاءه وخلوده • وكانت سهام فى نفس الوقت يتفتح لها طريق آخر • امتعضت نفسها المتطلعة عندما علمت باضطرار عزيز صفوت الى الانقطاع عن الدراسة بعد الثانوية العامة ليرتزق من مراسلة بعض الجرائد العربية • وكان عزيز قد يئس تماما من جذب شفيق الى فكره ، به انه ــ وهو بسبيل اقناعه ــ دفعه وهو لا يدرى الى حضن الدين فلحق بأبيه • ولكنه حقق نجاحا عفويا مع سهام وهو ما لم يركز عليه من أول الأمر • عند ذاك انساق اليها بعقله

وقلبه معا فباتت غاية حياته . وزارها فى الكلية ودعاها الى لـ قاءات قاصرة عليهما دون شميق ، فلما وافقت تلقى من الحياة بركة ضافية . ونافشها برفق كمبتدئة ولكنه لم يصبر مع عواطفه المتأججة فقال لها :

ــ انى أحبك ، من قديم ، ربما من أول يوم ..

وجد فى صمتها المحفوف بالرضى استجابة أخطر من استجابتها العقلية ، ولعلها كانت الاستجابة الصادقة الأصيلة القائمة على أساس مكين حقا . قالت له :

ــ انى آسفة لانقطاعك عن الدراسة .

فتساءل باستهانة :

ــ هل تعطيك الجامعة شيئا يعتبر الحرمان منه خسارة ؟

ثم ضغط على راحتها بحنان وقال :

ــ لن أنقطع عن الثقافة أبداً .

وتساءل عما يدور برأسها من هموم المستقبل فرآه فى ضوء ساطع ، وصارحها بما رأى كالشهادة الجامعية وطبقة الأسرة والفقر ، فقالت :

ــ لا يهمنى هذا كله !

فقال لها :

ــ انها مشكلات حقيقية ولكن فى العالم الذى يؤمن بها ، فاذا كفرنا بهذا العالم فلا وجود ثمة لها ..

وتحمست بدافع حبها لتقويض ذلك العـالم المغضوب عليه ، ولكنها ترنحت على الحافة وهى تشعر بحاجتها الى المزيد من القوة لتحقيق واقعا جديدا • ومع أن جو أسرتها عودها على الصدق والصراحة الا أنها أسدلت على أسرارها الجديدة ستارا لما تعرفه جيدا عن أبيها ؛ بل وأخيها الذى انضم الى الأب من خلال عناده الجدلى قبل أى شىء آخر : وقالت لنفسها :

ـ فلنؤجل المعارك الى حينها !

ولكنها لم تستطع أن تعرف خواطرها عن « المستقبل » فسألت عزيز يوما وهما جالسان فى الجنفواز :

ـ ألديك صورة واضحة عن المستقبل ؟

فقال بهدوء لم يخل من امتعاض :

ـ عندما تكفين عن الاكتراث بهذه الشواغل أعرف أنك وصلت !

فصممت على أن تحوز ثقته مهما جشمها ذلك من متاعب • وكان يجد فى زينات محمدين ـ أخت زكية صديقة شفيق ـ مفرجا عن توترات شبابه لينعم بصفاء الحب مع سهام غير أن زينات فاجأته ذات يوم قائلة :

ـ سأتزوج من تاجر ليبى وأسافر معه الى ليبيا •

فقال لها قبل أن يفيق من المفاجأة :

ـ سيتاجر بك هناك !

فقالت دون مبالاة :

ـ أربح لى أن أكون سلعة هناك .

واختفت من حياته مخلفة أعصابه فى مهب الريح . واستأثر شفيق وزكية بحجرة السطح . والتحقت زكية بكلية التجارة ، وتوثقت العلاقة بينهما ماتحمة بالألفة وشىء من الاحترام حتى قال له عزيز صفوت :

ـ لم تعد علاقة عابرة ، على الأقل من ناحيتك ..

فابتسم شفيق وتساءل :

ـ ألا تخشى أن تلحق بأختها ذات يوم ؟

ـ فرض محتمل ..

فقال شفيق متنهدا :

ـ نحن نتدهور مثل مرافقنا العامة ..

ـ انهم يستعدون للحرب ..

فسأله باهتمام :

ـ هل نقدم حقا على هذه المغامرة ؟

ضحك عزيز ضحكة غامضة ثم قال بيقين كأنه أحد أعضاء هيئة أركان الحرب :

ـ فى اللحظة الأولى سوف ينقض الطيران الاسرائيلى

على مرافق الماء والكهرباء والمواصلات تاركا مهمة تصفية النظام للملايين من سكان القاهرة !

فتساءل شفيق بقنوط :

ـ اذن لماذا ننفق الآلاف من الملايين ؟

ـ لا حيلة لنا فى ذلك !

ـ والحل ؟

فقال عزيز باسما :

ـ الحل فى الداخل !

فقال شفيق بمرارة :

ـ الحق أن مصر محتلة بالروس قبل الاسرائيليين !

فقطب عزيز قائلا :

ـ الاسرائيليون يأخذون أما الروس فيعطون ولولاهم لا نتهى كل شىء !

صمت شفيق بفم ملىء بالمرارة ، ثم قال وكأنما يخاطب نفسه :

ـ تكون كارثة لو لحقت زكية بأختها !

وسبقهم رشاد نعمان الرنسيدى ـ ابن كوثر ـ إلى خوض الحياة العملية وألحق بسلاح المدفعية . ولما بلغ سن الرشد تسلم تركته حائزا درجة من الثراء لا بأس بها . وقالت له كوثر :

ـــ دعنى أخطب لك !

فقال ضاحكا :

ـــ لا أتزوج على الطريقة القديمة •

فقالت بلهفة :

ـــ تزوج بالطريقة التى ترضيك •

لم يكن جرحه قد اندمل تماما فقال :

ـــ صبرك ، ليس فى الجبهة عرائس •

وأفزعتها كلمة « الجبهة » التى علمت بها لأول مرة ونظرت صوب سنية فقال لها :

ـــ الجميع هناك ، والأعمار بيد الله •

فتساءلت كوثر فى كآبة :

ـــ والاستنزاف والردع ؟ !

فقالت سنية :

ـــ قلبى بحدثنى بخير والله حارسه •

تظاهرت بالشجاعة لتبثه فى روح كوثر ولكن حناياها درت اشفاقا على الحفيد الذى تحبه أكثر من الجميع • وصدقت نيتها على تلاوة آية الكرسى عقب صلاة العشاء ، ليلة بعد أخرى ، لتحل به ورفاقه بركتها • وكم انتظرت بلوغه سن الرشد لتفضى اليه بآمالها عن البيت والحديقة والمدفن ؟ وها هو يبلغه وهو فى الجبهة فكيف يطاوعها لسانها على

الكلام ؟ ! • دائما وابدا يعترضها الشوك وهى تقطف الوردة • بل هى أسرة لا يهادنها سوء الحظ أبدا • كوثر ، منيرة ، محمد ، رشاد وسهام ، وقبل هؤلاء تطل من أفق الذكريات مأساة حامد برهان ، فمتى تدركنا العناية الالهية ؟ ! • والعجيب بعد ذلك أن تولى شخصها كل عناية ورعاية كأنما تتحـــدى الشيخوخة الزاحفة • انها تتردد على عيادات الأطباء فى مواعيد منتظمة ، تروى عطشها من مياه حلوان المعدنيـــة ، تملأ رئتيها بالهواء الجاف المنعش ، وتطارد الشيب بالحنـــاء متوجة رأسها دائما بهذا اللون الأرجوانى المهيب • واذا لمحت على شفاه الأبناء ابتسامة قالت :

ــ علينا أن نعد أنفسنا للصلاة ونحن على خير حال !

وكم من مرة تنتقد فيها اهمال كوثر ومحمد ومنيرة الذى جعل من رءوسهم مرتعا للشـــيب يجول فيه ويصـــول دون معارض • وقالت لها أم سيد ذات مساء وهى راجعة من السوق :

ــ رأيت فى العتمة سى على ابن ست منيرة داخلا عمارة ست مرفت !

فقطبت ثم قالت :

ــ لعله يزور زميلا له •

ثم مخاطبة نفسها :

ـ لم يفكر في زيارة جدته !

وشكته الى منيرة فى لقاء الجمعة ، وسألته منيرة بعد العشاء فى شقتهما بالعباسية :

ـ أذهبت أول أمس حقا الى عمارة مرفت هانم بحلوان ؟

انحشر قلبه فى حلقه وظن أنه انفضح ، غير أن منيرة أنقذته وهى لا تدرى فواصلت :

ـ لا تهمنى الزيارة فى ذاتها فلعلك زرت صديقا ولكن أما كان الواجب أن تمر بجدتك ؟ ، عليك أن تزورها لتخفف من حزنها !

فازدرد ريقه قائلا :

ـ لم يتسع الوقت !

ثم بصراحة خشنة :

ـ والبيت القديم ممل !

فقالت بعتاب :

ـ لك جدة مدهشة لا تمل !

فلاذ بالصمت مستوصيا بمزيد من الحذر . ولما رجع رشاد لقضاء عطلته الدورية أثارت القاهرة انفعاله . هذه المدينة الخالدة التى تعيش بمعزل عن الزمان ! . وصمم من بادىء الأمر على ألا يشير بحرف الى حياة الجبهة الحقيقية . وبعد العناق قال :

ـ ليست الجبهة كما تتصورون ، ما هى الا مبالغات وأوهام !

احتفظ بمعـاناته فى سرية مقدسـة ، كما دفن زلازل الانفجارات فى أعماق ذاته . ومرارة الهزيمة الموروثة عن غيرهم ، والمسئولية التى تنوء بمناكبهم عما حدث وعما يحدث وعما سيحدث . لذلك قذفت به الجبهة فى أعماق هموم عامة عاش أكثر عمره فى هامشها . ولكن شـد ما تبـدو القاهرة لا مبالية معربدة متمردة ! . وقال لأمه دون تمهيد :

ـ ماما ، انى أفكر جادا فى الزواج !

فهتفت كوثر :

ـ ما أسعدنى بسماع ذلك .

وقالت سنية بمرح :

ـ رأيت ولا شك ما غير فكرك !

فقال بغموض :

ـ فى المرة القادمة تتضح الأمور !

الحق أنه فى ليالى المعاناة وردت عليه فكرة الزواج كالهام مشرق . ووثبت الى ارادته عندما رأى أخت زميل له فى القاهرة . ولم يكن حبا من أول نظرة ، وجدها مقبولة وكفى ، ولم يكن برىء تماما من سهام . وأنفق العطلة فى التسكع مع الزملاء . وزار خاله وخالته أيضا . وهناك صارحهم

بما أخفاه عن أمه وجدته • وجد منيرة ملهوفة على المصير أكثر من الجميع ولكنه لم يرو لها ظمأ • وقال رشاد بعتاب :

ـ القاهرة مشغولة بذاتها !

فسأله على :

ـ ماذا تتوقع غير ذلك ؟

وقالت منيرة فى حيرة :

ـ الناس اما يحاربون أو يسالمون أما نحن فقد اخترعنا حالا جديدة غير مسبوقة بنظير !

وفى بيت خاله محمد ارتفعت درجة الغليان درجات أكثر • هو أيضا ثمل بالأسى عندما رأى سهام وهاجت شجونه • ولما عاملته برقة وأدب وتحفظ كأن لم يكن بينهما شىء حزن أكثر • وقالت له :

ـ نتمنى لك السلامة •

فلم يحدث له أى سرور • أما خاله محمد فقد لخص الموقف من وجهة نظره قائلا :

ـ انه يضحى كل يوم بأرواح بريئة ليدارى بها عاره !

فسأله :

ـ هل عندك حل يا خالى ؟

فقال محمد :

ـ ولا حل غيره ، اسمه الحل الاسلامى !

وشعر لأول مرة بأن شفيق منحاز الى رؤية والده فأدرك مدى التغير الزاحف على آله فى غيبته عنهم ما بين الكلية والجبهة • لكنه لم يحزر مدى الانقلاب الذى حل بسهام • انها الآن مؤمنة بالثورة المطلقة • أجل لعب قلبها الدور الأول فى ذلك ، كما لعب العناد الجدلى دوره فى انقلاب شفيق ، ولكن النتيجة واحدة • وكانت تخوض عاصفة عنيفة وتشعر فى الوقت ذاته بأنهـا ليست الا بداية • وما تدرى الا وعزيز صفوت يقول لها :

ـ انى أدعوك الى حجرتى بدلا من التسكع !

وجمت ، وتورد وجهها الجميل ، وتمتمت :

ـ حجرتك !

فقال بعجلة :

ـ سحبت اقتراحى !

تساءلت عما يعنيه انسحابه ؟ • ارتاحت له كقرار ولكنها انسحقت تحت وطأة القلق • دائما تلهث وراءه فحتى متى ؟ ! •

أما هو فقال بهدوء وحنان :

ـ ما زلت أنت أنت ، سهام كريمة المربية الفاضلة منيرة وحامد برهان •

فقالت بعصبية :

ـ كلا ، لا تسىء بى الظن ، ولكن هذا لا يعنى ••

وتوقفت عن الكلام فقال :

ــ هذا يعنى انك لم تتخطى المرحلة بعد •

فتساءلت :

ــ لم العجلة ؟ ، لا توجد فى طريقنا عقبة حقيقية !

فتساءل باسما :

ــ ولم الصبر ؟ !

ها هو يحاصرها فى ركن مستندا الى امتلاكه قلبها حتى جذوره • وادى اللقاء التالى تصرفا غاية فى الشذوذ ولكن بطمأنينة وثقة كاملتين • مضى بهـــا نحو طريق جديد ولما سألته عن وجهته أجاب :

ــ نحن ذاهبان الى بولاق !

انساقت معه كالمنومة شـــاعرة بأنها تعبر حـــدود وطنها مهاجرة الى الأبد • ونبض قلبه بالصدق وأعذب النوايا فتخيل أنهما جسد واحد ووعى واحد • ولما دخلا الحجرة شبه العارية استرق اليها نظرة متفحصة وقال :

ــ دون مقامك بما لا يقال ••

فنظرت من الكوة صوب النيل وهى ترفع منكبيها استهانة فقال لنفسه ان هذه الحجرة ذات التاريخ الطويل فى سوء السمعة تستقبل ــ لأول مرة ــ صدقا وأصالة • ورغم تظاهرها بالثبات انتفض داخلها بتيارات متضاربة • وكانت رغبتهـــا لا تقل عن رغبته ولكنها لم تطاوعه بدافع رغبتها ، أو لم تطاوعه بدافع رغبتها وحدها • وأقنعت نفسها بأنها لا تستسلم ولكنها

تثب الى قمة فريدة ، غير أنها شعرت من ناحية أخرى بأنها تتردى الى قعر هاوية من الأسى الدائم • وحدست بغـــريزة ما أنه ــ على عنفه الظاهر ــ فى حاجة الى حنانها ، وبأنها ستفتقد الحنان الى الأبد • ووهبت الكثير دون أن تنال ذرة من عطاء لاضطرام عقلها ، أما هو فمسح على وجهه مي ارتياح وتمتم :

ــ بكل بساطة ، هذا هو الزواج !

فامتعضت لهذا القرار المحفوف باليأس ولكنها ابتسمت فسألها :

ــ كيف تشعرين ؟

فأجابت وهى تلثم خده :

ــ بالسعادة •

ــ أعترف بأنك حظى من الحياة ••

فقالت برجاء :

ــ لعلك لا تستسلم للحنق بعد الآن !

فتفكر قليلا ثم قال :

ــ انه الوجه الآخر للحب العميق ••

هكذا ولدت من جديد فى عالم جديد • تمادت فى التوغل فيه بكل قوة • لا اختيار لها فاما الثورية واما الضياع • انها تنفصل نهائيا عن أبيها وأمها وأخيها ، وتعايشهم اليوم كفرد من طابور خلمس • واستعرضت رحلتها الطويلة ما بين رشاد

وعزيز فبدت خيالية ، وأن كل خطوة تخطوها ينهدم ما وراءها فينقلب هاوية لا تسمح بالتراجع قيـد أنملة • وغمغمت لنفسها :

ــ يوجد أيضا حزن عميق •

متى يتـأتى لها أن تنشر أسرارها دون مبـالاة ؟ ! • وضاعفت من اجتهادها الدراسى لهفة على الاستقلال • ولم يجد جديد بالنسبة لمشروع رشاد عن الزواج • ولم يحضر فى ميعاد اجازته الدورية • بدلا من ذلك بلغتهم أنباء رسمية بأنه يعالج فى مستشفى الجيش من اصـابة غير خطيرة • هرعت اليه كوثر وسنية وهما على حال من الفزع لا توصف • وعرفا أن ثمة شظية أصابت ترقوته اليمنى تحتاج الى اعتكاف قصير • وكانت اصابة كوثر أفدح من اصـابته رغم أن حاله دعت الى الاطمئنان التام • وقالت له كوثر :

ــ لن ترجع الى الجبهة فيما أعتقد ••

فضحك قائلا :

ــ سأرجع حال شفائى ••

ثم وهو يربت على ظهر كفها :

ــ نحن نقترب من هدنة !

ولكن كوثر آمنت بأنها أيام حروب وفواجع • وقالت :

ــ كنا نستعد للزواج ؟

فقال ضاحكا :

ــ تبين لى أن فتاتى مخطوبة !
فقالت بضيق :
ــ ما أكثرهن لمن يشاء ..
فقال مداعبا :
ــ تتكلمين باعتداد الخادبة مع أنك لا تبرحين البيت الا عند الملمات !

وكان أمين ابن منيرة أول من افتتح عصر الشرعية فى جيله على غير توقع من أحد . وجد هند رشوان تواصل نجاحها فى كلية التجارة بهمة عالية فصارحته بأنها تود أن يخطبها وأنها باتت تضيق بسرية علاقتهما . وكان يحبها فوافقها على رأيها . واقتحم حجرة مكتبة أمه التى تقرأ فيها بعض الوقت كل مساء وجلس قبالتها . نظرت اليه متسائلة فقال :
ــ أريد أن أخطب !
دهشت منيرة وطالبته بمزيد من الايضاح فقال ببساطة :
ــ هند رشوان جارتنا ..
أدرك دون جهد أنها لم تسر ، وكان يتوقع ذلك ، ولكنه كان واثقا من حكمتها أيضا ، أما أبوه فقد كتبت عليه الموافقة دون تردد بحكم المثل الذى ضربه . وسألته منيرة :
ــ أواثق أنت من نفسك ؟
ــ بكل يقين يا ماما ، انها فتاة ممتازة .

فأخفت معركتها الباطنية وقالت :

ـ على خيرة الله .

فقال ضاحكا :

ـ أيضا فى كل أسرة يجب أن يوجد ٥٠٪ من العمال والفلاحين !

فقالت مفصحة بعض الشيء عن موقفها الباطنى :

ـ ولكن الرئيس نفسه زوج بناته من الطبقة العالية !

ورغم شتى التعليقات كانت الخطبة أول حدث سار فى جو الأسرة . وقيل انها خطبة تحمل طابع زمانها الغريب فى كل شيء . وشهدت الأسرة جميعا حفل الخطبة البسيط فى شقة الأسطى المتواضعة وفى مقدمتها سليمان بهجت . وتأثر رشاد بالطقوس ففاض قلبه بالحنين ، أما سهام فشعرت بوطأة سرها أكثر من أى وقت مضى . وتساءل على فى نفسه ثم لم تدع ميرفت حبيبتى ؟ ! . أما شفيق فتذكر زكية محمدين مقرا بأنها لا تقل فى شيء عن هند رشوان ولكنها تنتمى الى طائفة المنبوذين ! . وأدركت منيرة من سياق الحديث مع أم هند أنها تحلم بزواج قريب عقب التخرج فساورها قلق وتساءلت متى يصبح أمين قادرا على الزواج حقا ؟ ! . وهذه الهموم تتضخم فى ضمائر أصحابها حتى تحاكى الأفلاك فى دورانها ولكنها

تذوب وتختفى اذا اصطخبت موجة عاتيـــة • وانصبت هذه الموجة دون نذير وبلا مقدمات مثل زلزال • فذات مساء تغير وجه الارسال التلفزيونى فاقتصر على اذاعة القرآن الكريم • ولفت الحيرة الناس من كل جانب • قال البعض :

ــ هذا لا يكون الا لموت عظيم فى الدولة •

ــ أو موت أحد ضيوفنا العرب !

ــ غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قتل ••

واذا بأنور السادات ينعى الى الأمة العربية أعظم الرجال جمال عبد الناصر • قذف نائب الرئيس المستحيل فى وجوه الناس باعتباره ممكنا • وتطايرت الأفئدة فى الصــدور وحل عالم خرافى محل العالم القــديم • متى وكيف ولماذا ؟ • وهل هذا ممكن ؟ • ولم لا يكون ممكنا ؟ ••ما تصور أحد أنه سيشهد موته • ما تصور أنه يجوز أن يموت • ثمانية عشر عاما مضت وهو يصول ويجول فى كل صدر ، ممتط لكل منكب ، منتشر فى كل وعى ، خفاق وراء كل قلب ، هو الحظ والرزق ، والأمان والخوف ، الأمل واليأس ، الصديق والعدو ، القوة والضعف ، الأمس واليوم والغد ، السلام والحرب ، النصر والهزيمة ، فماذا يبقى للنـــاس اذا تلاشـــت فجأة هــذه العواطف ؟ ! • غشيت الكآبة البيت القــديم • أجهشت كوثر فى البكاء بلا منطق واضح الا أن تقدم احترامها المشوب

بالرهبة والخوف أمام حضور الموت المتجسد لعينيها • وسرعان ما بكت أم سيد وأم جابر • وصمتت سنية طويلا ثم اغرورقت عيناها قائلة :

ـ لا دائم الا وجهه !

وسمع محمد بالخبر لاول مرة وهو ماض فى طريقه الى باب اللوق • قابله زميله فهمس به فى أذنه • لم يصدقه ؛ وخشى أن يكون وراءه شرك لجر الأعداء الى المعتقل فقال لزميله بحدة :

ــ لا تردد ما ليس لك به علم !

فقال الرجل بيقين :

ــ أمام تلفزيون المقهى شاهدت وسمعت !

ــ هرول الى شقته فوجد ألفت وشفيق وسهام حول التلفزيون ، ولا تخلو عين من أثر دموع ، قال وهو يجلس :

ــ البقية فى حياتكم •

ــ جلس واضعا حقيبته على حجره مسندا عصاه الى خوان وأغمض عينيه • وانقضت دقائق قبل أن يفيق من ذهوله • ولما أفاق من ذهوله شعر بأنه يولد فى عالم جديد • شعر بالقيود تنحل من حول عنقه ويديه وقدميه • شعر بأن وزنه يخف وأن نسائم الأمان تهفو الى وجدانه • وسرعان ما اجتاحه ارتياح عميق • وملأه حبور قوى لا حيلة له فيه فأخفاه خلف

بقية المسدلين • وتمادى به الحبور فاستغفر الله فى سره وخاف أن يفلت منه الزمام فيغشى عليه • وقد بكت ألفته لاقتحام حقيقة الموت نقلبها بقوة لم تعهدها من قبل • وبكى شفيق وسهام من أجل المعاشرة الوجدانية القديمة التى لم تتبخر كلها • وتساءلت سهام :

— من كان يتصور ذلك ؟

فأجاب محمد :

— لقد انسانا كل شىء حتى القدر •

فتساءل شفيق :

— من يخلفه يا ترى ؟

فقال محمد بازدراء :

— ليس فى الامكان أسوأ مما كان !

أما فى العباسية فقد ملك الحزن منيرة وأمين بقـــوة لا تبشر بعزاء قريب على حين لبث على فريسة للذهول حتى تمتم بمرارة ساخرة :

— هذه هى التنحية التى لا رجوع عنها !

وعاش عزيز صفوت تلك الأيام أكثر وقتـــه فى الشوارع والمقاهى • صاحبته سهام وقتا منها غير قصير • وقال لها بثقة :

— عهد السادات قصير أما المستقبل فلرجالنا !

وخاض خضم الحزن الشامل ، وشهد الجنازة ، وسمع التلقين المذاع فتخيل القبر كنهاية لا مفر منها ، كزنزانة غارقة فى الظلام ، وتصور الضجعة المنفردة المعزولة عن المجد والخاشعة فوق حفنة من تراب ، وسرعان ما دهمه وارد لم يجر له فى بال متمثلا فى سيل من النكات ! ، تأمل ذلك وتعجب فقالت سهام :

ـ أعداؤه كثيرون أيضا .

ولكن بدا الأمر أوسع من ذلك ، وقال لها :

ـ انه رمز للحب والخوف فهـو حقيق بأن يثير عواطف متناقضة ..

أجل ، ليس الحزن وحده ما يحرك الناس ، انه حزن ظاهر وفرح خفى ورعب كامن تتناغم جميعا فى لحن جنونى ، الموت يعلن على الملأ أنه يأخذ عبد الناصر نفسه فأشعر كل انسان يقربه الشديد فقاسمه موته وهو لا يدرى ، قال لسهام :

ـ الناس تبكى أنفسها أولا !

فقالت سهام :

ـ اعتاد الناس أن يروه وحده فوق خشبة المسرح ، اليوم المسرح خال ، وليس أمام الفراغ الا الضياع والذعر ..

ـ أوافقك تماما ، فيما مضى أراد أن يتنحى فاستبقوه فيما يشبه الثورة ، ها هو الموت يفلته من قبضتهم اليائسة ،

ويطالبهم بحمل أمانة لم يعتادوا حملها ، فراحوا فى يأسهم يبكون وينكتون ••

ويمضى الوقت ويأخذ الطوفان فى الانحسار وما تلبث الدراما أن تحفل بالأحداث يجر بعضها بعضا • وتتأزم الأمور وتتعقد ولكنها تنتهى بنهاية غير متوقعة فينتصر الرئيس الجديد على أعدائه انتصارا مبينا • وبالانتصار تلوح بشائر زعامة جديدة ، ومولد شعبية جديدة متعطشة للانتصار ومتطلعة للأمان ، وتبدأ دورة جديدة للبحث عن مخرج من الأزمات المتراكمة • وكان رشاد قد رجع الى الجبهة فى كامل عافيته ، وبدا أنه انهمك فى العمل لدرجة أنسته الى حين مشروع زواجه ولكن كوثر لم تنس • وأدركتها هموم جديدة باعتلال كبدها فتبدت للناظر أضعف من أمها — الماضية فيما بعد الستين — مع محافظتها على صحتها ورونقها ، ومصارعتها للكبر مصارعة لا هوادة فيها • وفى أواخر الخريف أمطرت السماء مطرا غزيرا فرشح سقف الصالة وانداحت بقع بالجدران على حين تسللت قطرات من ركن حجرة المعيشة • عند ذاك تشجعت سنية قائلة :

— لا مفر من اصلاح السطح ••

وأذعنت كوثر لمشيئة أمها دون تردد • وجاءتهما أم جابر

الطاهية بقريب لها ، فأزال الطبقة المتهرئة وثبت مكانها طبقة من الأسمنت • وتساءلت الأم :

ـ ألا نعيد طلاء الصالة وحجرة المعيشة ؟

ولكن كوثر ـ وكانت مدخراتها تنفد باستمرار ـ أجابت :

ـ فلنؤجل ذلك !

فقالت سنية وهى تدارى هزيمتها بابتسامة :

ـ سيجىء الفرج على يد الرئيس الجديد •

فقالت كوثر بوجوم :

ـ ولكن رشاد غارق فى الجبهة يا ماما !

ـ الرئيس مشغول بالداخل ، جاد فى البحث عن حل سلمى ، وعلاقته بالعرب تتحسن يوما بعد يوم ••

وفى شقة باب اللوق استعاد محمد شخصيته المفقودة • مضى يتكلم بعد عكوف طويل على المناجاة الباطنية • وتمت لقاءات كثيرة بينه وبين أصدقائه القدامى • وقال له أحدهم مرة فى مكتبه :

ـ الرئيس الجديد صديق •

فقال محمد بحذر :

ـ ليكن اعتمادنا على أنفسنا ••

ـ العدالة تزحف حتى شملت الاقطاعيين أنفسهم ••

فراح يذكرهم بتجربة الماضى الخائبة ، ووافقه على ذلك

شفيق • أما سهام فأساءت الظن بالعهد الجديد منذ نم النصر لرئيسه ، لا ترديدا لأقوال صفوت فقط ، ولكن لأنها بلغت الغاية فى تطورها الجديد ، حتى الدين اقتلع من قلبهـا • واشتد شعورها بالغربة فى أسرتها ، وشعرت بتهديد خفى يحدق بأمنها وهى بينهم حتى قالت لنفسها مرة :

ــ هذه الشقة لا ينقصها الا مؤذن كى تصير مسجدا •

وقد آنست من أحد مدرسـيها ميلا نحوها حتى كاشـفها يوما برغبته فى الزواج منها • وذعرت بشدة ، وأخبرته بأنها « محجوزة » ، مشفقة فى الوقت نفسه من ترامى الخبر الى أهلها • لذلك فكلما ذكر للزواج سيرة كانت تقول على سبيل الاحتياط للمستقبل :

ــ لن أفكر فى ذلك حتى أكمل دراستى !

وتبلورت فى عقلها خطة للمستقبل وهى أن تتزوج من عزيز ولو اضطرت الى ابلاغ والديها من بعيد ، بالمراسلة ! • وزادتها الأيام ثقة فى حبيبها ومعرفة بجوانب حسنة فيه • فهو يحبها بصدق لا تخطئه غريزتها . وهو جاد كل الجد فى تمسكه بمبدئه ، وحتى غضـبه على أعدائه مبطن برومانسية موهوبة لانسانية لم توجد بعد • ثم انه انسان ، يتذوق الشعر والموسيقى ويحب الكلاب • ولكن شد ما حقد على الرئيس الجديد • وقال لها مرة :

ـ انه مقلب لم يجر لنا فى خاطر ، وهو دائب على مغازلة الرجعية العربية والغربية !

وضاعف من قلق سهام أن رؤيتها السياسية الجديدة لم تعد سرا مصونا ، فمن الانسياق الأحاديث المتبادلة بينها وبين زميلاتها فى قسم اللغة الانجليزية أفلتت تعليقات شتى تنم عن حقيقتها ، فضلا عن أن واحدة منهن على الأقل لمحتها فى الجيزة بصحبة عزيز صفوت • أما أسرة منيرة بالعباسية فقد مضت حياتها فيما يشبه الهدوء • أجل أثار مشاعرها نبأ خروج زاهية من السجن ، حتى تساءل على ساخرا :

ـ ألا يقضى الواجب بزيارة فيللا المعادى للتهنئة ؟ !

ولكن منيرة كانت شفيت تماما من سليمان بهجت ، وسلمت أيضا بفقد عبد الناصر فاستغرقها تماما عملها الرسمى ونشاطها الخاص فى مكتبتها • وتبدت فى وقار كهولة بشعرها الأبيض وجمالها الذابل كأنما تماثل أمها فى العمر أو تزيد عليها • ولم تلق بالا لعتاب أمها وهى تسألها :

ـ ما الذى يجعلك تبقين على هذا الشيب المبكر ؟ !

وسعد أمين وهند بخطبتهما وهما بعيدان عن موعد المشكلات ، وغرق على فى بحر العسل الذى يستحلبه بين أحضاء ميرفت • غير أن « ناصرية » منيرة وأمين انتبهت منزعجة وهى فى سبات الحداد على همسات تتردد أحيانا

بالنقد لعصر الزعيم الراحل ، قالت على مسمع من أمين :

ــ يا لها من وقاحة !

فقال أمين بامتعاض :

ــ لا عجب فنحن نسير فى طريق جديد !

ولكن ما المخرج من المشكلة الأساسية المتجسدة فى الجبهة ؟ ! أجل ثمة شعور بالأمان وسيادة القانون . وثمة غزل للديمقراطية ، ولكن الجو راكد والغد محجوب بغمامة قاتمة . ونفد صبر الأعصاب فانفجرت مظاهرات فى الجامعة . وبلغت درجة من الخطورة قبل أن تتلاشى فى السكينة من جديد . واختلفت المواقف بين الأحفاد ، فاشترك فى المظاهرات أمين وسهام بدافعين مختلفين متقاربين ، واشترك على بلا دافع على الاطلاق ، أما شفيق فانسحب الى قاعدة المتفرجين . ورجع ذات مساء ــ فى أثناء الاضطرابات ــ الى أسرته بباب اللوق مضطربا شاحب اللون ، جلس مع أسرته فى حجرة المعيشة ثم قال بتأثر بالغ :

ــ عزيز سفوت قتل !

واذا بصرخة تفر من فم سهام ممزقة بالألم وهى تصيح :

ــ لا !

سرعان ما تحولت مشاعر الأسرة من النبأ المحزن لتتركز فى فتاتها الجميلة . وغلبها الحزن فانهارت تماما غير مبالية بالنظرات المستطلعة وما وراءها . هكذا تكشفت لهم الحقيقة ،

وفى ظرف يدعو للأناة والصبر • ونهضت ألفت فاحتوت سهام ومضت بها الى حجرتها ، ولبث محمد وشفيق يتبادلان النظر فى ذهول ووجوم • واكفهر وجه محمد وبلغ به القهر منتهاه فقال لابنه بجفاء :

ــ انك المسئول الأول !

انكمش شفيق أمام انفعال أبيه وقال بصوت ضعيف :

ــ ليس ذنبى ••

ثم وهو يستميت فى دفع التهمة عنه :

ــ جرى كل شىء تحت أعينكم ••

فصاح محمد :

ــ لم يكن لرأيى وزن أمامكم ، وحيال زمانكم ••

فقال شفيق برجاء :

ــ حلمك يا بابا ، كان يمكن أن يحدث أى شىء فى الخارج ، وكيف نعيش خارج زماننا ؟ :

فقال محمد بحنق :

ــ أعرف ما يقال ، سمعته مرارا وتكرارا ، ما هى الا لعنة وباء !

ثم حدج ابنه بنظرة متفحصة كأنما يحقق معه وسأله :

ــ معروف أنه انقطع عن الدراسة فماذا دسه بين المتظاهرين من الطلبة ؟

ـــ لعله ذهب كصحفى !

ـــ بل ذهب للتحريض كشيوعى ..

ـــ ربما ، لست مسئولا عنه ..

فقال الرجل بحنق :

ـــ لست آسفا عليه ولكنى آسف على نفسى !

أما ألفت فقد غسلت وجه سهام بالكولونيا ووهبتها من الحنو فوق ما تملك . وقالت :

ـــ ليتك تسلطت على أعصابك !

فقالت وهى لا تكف عن البكاء

ـــ لا يهمنى ..

ـــ تمالكى عواطفك ، أرجوك !

ولكن قلبها كان يتقطع اربا ، والحزن يزحف مهيبا قاسيا منذرا بالخلود ، وخرابة قاحلة تقترب لتكون لها منفى أبديا : لم يبق الا قلب يخفق وحده كقـــرار نغمة يفتقد جوابه على الدوام . وفى صباح اليوم التالى لم يشر أحد بكلمة الى « حادث » الأمس . انتشر السر مثل شـــعاع الشمس فى الصيف ولكن تجاهلته الأعين فلم تره . ومضت أيام قبل أن يخلو اليها أبوها فيسألها :

ـــ كيف حالك ؟

فحركت شفتيها دون أن تتبس • عند ذاك قال بحنان لم تتوقعه :

ــ لا بأس من المعاناة فهى حال الدنيا ، وعلينا أن نرضى بقضاء الله دون قيد أو شرط ••

وربت على يدها وواصل :

ــ كنت يوما مثلك سعيدا بآمال لا تحصى ، وفى بضع ساعات تقوض عالمى ففقدت عينا وساقا ونصف رزقى على الأقل ، ولكننى لم أنهزم ولا ماتت ثقتى بالله ، ومن يعتز بالايمان لا يذل بالهوان ، وربنا معك يا ابنتى ••

انحسر ستار الغربة أمام دفقة سلام أبويه ولكن سرعان ما جثم الظلام كرة أخرى • الحقيقة الثابتة أنها غريبة تماما فى أسرتها • غربة لا يداويها الحنان أو الحب • انهم يتعاملون مع « أخرى » لم يعد لها وجود ، وما هم فى الحق الا أعداؤها • أكان أبوها يخاطبها بهذا الأسلوب لو علم بما خسرته من جسدها وروحها ؟ ! • المسألة فى نظره تنحصر فى حبها لشاب يرفضه هو لعقيدته وعدم كفاءته لها ، ولعله سر بالقدر الذى أزاحه من طريقه مؤملا فى الوقت نفسه أن يهبها الحظ من هو خير منه • انها فى واد وأباها فى واد آخر ، ولا انقاذ لها الا أن تهاجر بطريقة ما من هذا البيت الذى تقطعت بينها وبينه الأسباب • وهل بقى لها من عزاء الا فى ثوريتها وهى الارث

الحقيقى لحبيبها ؟ ! • وستظل بين حاضر مشتعل ومستقبل غامض تحت تهديد دائم بالحرج والفضيحة • ولم يشر محمد بكلمة واحدة الى مأساة ابنته فى البيت القديم • وأصبحت منيرة محتكرة الصوت المعارض الوحيد فى جلسة الجمعة • قال لها محمد :

ـ انه عهد أمان بعد خوف ، وقانون بعد فوضى ••

فقالت منيرة ساخرة :

ـ تجلت وحشيته فى قمع المظاهرات !

فتقبض قلب محمد وقال بفتور لم يلحظه أحد :

ـ حال استثنائية ، والموقف يتطلب الحزم ••

ـ دائما يدور الكلام عن الموقف ، والحقيقة انه لن يجرؤ على خوض حرب ••

وكان محمد فى أعماقه يؤمن بذلك • وتساءلت كوثر :

ـ لماذا تريدين الحرب ؟ •• سيجند أبناك بعد عامين على الأكثر ••

ـ لا أريد الحرب ولكنى أريد أن أقول انهم يتخذون منها عذرا لوحشيتهم ••

فقالت سنية :

ـ لندع له بالتوفيق ••

فقالت منيرة بامتعاض :

ــ صدقونى أنه لن يقنع بتصفية السلبيات الماضية ولكنه سيلحق بها الايجابيات أيضا •

فقال محمد باسما :

ــ قولى ما شئت فالحق أنه لا وجه للقارنة بين ما كان وما هو كائن ••

واذا بكوثر تقول :

ــ أتعنى أن أسمع خبرا واحدا هو أن الحرب انتهت ، وأن رشاد راجع ايتزوج !

وعاودت محمد ذكرى مأساته فعجب كيف فضلت سهام عزيز صفوت على رشاد ؟ ! • وقال لنفسه :

ــ لا تفسير لذلك الا سوء حظى !

ولكن حظا أسوأ من حظه بما لا يقاس انقشع فى لحظة أبدية كأنه سحابة صيف • ارتفع صوت راســخ النبرات فى الراديو يزف الى الشعب نبأ عبور قواته المسلحة للقنال • أهى الحرب من جديد ؟ ! • هل تمخض الجو الراكد المؤذن بنوم طويل عن صاعقة تقتلع الأعصاب من جذورها ؟ • هل يتطاير المستحيل ويتلاشى كأنه وهم ماكر ؟ ! • هتفت كوثر بجزع :

ــ ابنى !

وتساءلت سنية المهدى فى ذهول :

ــ حرب ؟ ! •• ما بالها تتكرر كالصلاة ؟ !

وقالت لها كوثر بصوت متهدج :

ــ لم يكن خوفى لغير ما سبب ••

فغمغمت سنية :

ــ انه رحمن رحيم !

ولم يصدق أحد من أسرة محمد الخبر ، أو لم يصدق ما يقال عن النصر • تذكروا ما ذاع وملأ الأسماع أيام ٥ يونية • وتساءل محمد بحيرة :

ــ لماذا نتطوع بالانتحار ؟ !

وقالت سهام لنفسها ان يكن انتحارا حقا فسيجىء بالشفاء لبعض أوجاعها • أجل فلن يخص البلد من الرجعية الا هزيمة ساحقة • وربما انفجرت فى أعقاب ذلك القوى الشعبية المطحونة وكالعادة لجأ محمد وألفت الى محطة لندن وصوت أمريكا • تضاربت الأخبار بادىء الأمر ثم تأكد النبأ المذهل • تجلى النصر فى هالة سحرية كمعجزة باهرة تحلق فوق الخيال والتاريخ • اندثرت شخصية صفراء مهزولة وحلت وحلت محلها شخصية تضطرم بالعافية والثقة ، تلاشت روح فاسدة مكفنة فى الهزيمة وخلقت روح جديدة تختال بالحبور والالهام ،

تبخر يأس الهزيمة وذل القهر وانكسار القلب وهزجت الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون .

ـ انتشل الرجل مصرمى الفناء ، وانتشل العرب ..

سهام منيت بالهزيمة وحدها . قتل عزيز صفوت من جديد وانتصر العدو ووئد الأمل وابتسم المستقبل للرجعية المصرية التى تحرر سيناء ، ولم تعد هى الا فتاة ضائعة ، منبوذة ، مهددة بالفضيحة . ولم تخل منيرة من سرور ، كذلك أمين ، ولكنه سرور أفسدته الغيرة ، وكدره الحنق ، وتساءلت بحيرة :

ـ كيف انهزم الأصل وانتصر الظل ؟ !

ثم عزت نفسها قائلة :

ـ لكنه جمال الذى خلق هذا الجيش وجهزه !

وتشبث أمين بهذا القول كأنه طوق النجاة . حتى على هزت نشوة نفسه الرافضة ولكنه سرعان ما استردته هموم طارئة بسبب مرض ميرفت هانم . قهرها روماتزم مفصلى ومتاعب فى الجهاز الهضمى وفساد فى الأسنان اقتضى خلعها . انطفأ ولعها بالحياة وعجزت عن الحب واجتاحتها طفرة من الشيخوخة فراح يمضى وقت زيارته الى جانب فراشها مفعم القلب بالرثاء والأسف والقرف . وفى قمة النصر حدثت الثغرة ، وكانت مفاجأة غير سارة ولكنها لم تخدش المعـــالم

الأساسية للصورة . غير أنها لم تخل من رد فعل تشاءمت عند منيرة وأمين أما سهام فقالت بجرأة على مسمع من والديها وأخيها :

ـــ انها هزيمة أشنع من ٥ يونية !

فقطب محمد وقال بجفاء :

ـــ هذا ما يردده زملاء لى من الشيوعيين . حذار يا سهام ، انك تحيرينني ..

فقالت باصرار :

ـــ انى حرة فى رأيى ..

فهتف بها :

ـــ حرة نعم ولكنك مسلمة أيضا !

فقالت لنفسها « لست مسلمة » . وقالت أيضا دون أن يدرى بها أحد :

ـــ انى أختنق فى هذا البيت ..

وتوقف القتال ، وتنفست الكائنات المتوترة ، وتم البعث فلا رجوع عنه . غير أن البيت القديم لم يسلم ، أو لم يسلم تماما . وكان محمد أول من علم بالخبر اذ زاره فى مكتبه صديق من ضباط المدفعية ، وقال له :

ـــ ابن أختك رشاد أصيب فى الثغرة ، ونجا بأعجوبة !

قرأ محمد فى وجه صاحبه أنه لم يدل بكل ما عنده فحدجه بنظرة واجمة متسائلة :

ــ اقتضى الأمر جراحة لبتر الرجلين !

تجلى الحزن فى عين محمد الباقية فقال الآخر :

ــ نحن على أى حال فى عصر الأطراف الصناعية .

وغادره وهو يقول :

ــ انه بطل !

شعر محمد بثقل المهمة . وأبلغ منيرة أولا ثم اتفقا على الذهاب معا الى حلوان . وجدا كوثر على حال شديدة من القلق بخلاف سنية التى بدت رصينة جامدة حتى قال محمد لنفسه « لعلها رأت حلما منذرا » . وسبقته منيرة فقالت لكوثر :

ــ الحرب انتهت ، ورشاد نجا والحمد لله ..

فهتفت وهى تنظر نحوهما بارتياب :

ــ حقا ؟ !

فألقى محمد بنفسه فى الاعتراف قائلا :

ــ تعرض لاصابة ، انه بطل ، ولكنه نجا ..

فهتفت

ــ قلبى لا يكذب .

فقال :

ـ أجريت له جراحة ناجحة !

حلت بالبيت الحقيقة والحزن • واستقبلت القلوب أسى دائما ولكنه مبطن بالحمد • وامتزج الدمع بالفرح عندما رجع رشاد الى البيت محمولا • أجلس من أول يوم على كرسى طبى ذى عجلتين ولكنه أبدى روحا عالية • لم يكن الأمر محض تمثيل ولكنه ـ أيضا ـ الشعور بالنجاة من هلاك محقق كان مصير رهط من أقرانه طالت به عشرتهم فى الكلية والخندق والحرب • وقلب عينيه الجميلتـــين فى الوجوه المحدقة به • سنية •• كوثر •• منيرة •• محمد •• شفيق •• سهام •• أمين •• على •• سليمان بهجت وقال ضاحكا :

ـ ها قد اجتمعتم مرة أخرى !

وأشار الى أمه قائلا :

ـ هذه السيدة لا تريد أن تحمد الله !

ونظر الى سهام وقال وهو يضحك من جديد :

ـ نجوت من مصير لا يسر !

فاحمر وجهها الجميل حرجا وقالت :

ـ انى فخور بك •

فقال بحرارة :

ـ لتكن آخر الحروب ••

سر برجوعه الى البيت سرورا عميقـــا فتمتـــع بالدفء

والحب • واستهان ساعات بمصـــابه • غير أنه كان يشرد أحيانا وهو ينظر الى المتبقى من جسده الفارع فيذكر نشاطه وتقلبه بين الأماكن المحبوبة مختالا بشبابه وجماله فيهزج قلبه بالأشجان الخفية • ولم يكن يستسلم للحـــزن ، كان يدفعه ويطارده ويقول لنفسه :

ــ عش فى الواقع وأنه لغنى بامكانات لا حصر لها ••

ولما قالت له جدته مرة :

ــ انى راضية اذعانا للمشيئة الالهية ••

فتفكر مليا ثم قال لنفسه ناشدا الراحة المطلقة :

ــ لا بأس لمن آبى الاستسلام للعدو أن يستسلم للقدر !

وقررت سنية أن تصوم رجب وشعبان ورمضان بالاضافة الى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع • أما كوثر فأوقفت نفسها على رعايته • وملأ هو وقته بألوان التسلية ، يدفع كرسيه إلى الفراندا فى الأجواء المناسبة ، يتابع الراديو ، التلفزيون ، يستقبل أصدقاء النادى الرياضى فى مساء معين فأحيا ذكرى اجتماعات السمر التى ولع بها جده حامد برهان • ولم يجد فى أمه محدثة شائقة بخلاف جدته التى لا ينفد مدخرها من ذكريات الماضى وغرائب الأحلام وعجائب عالمى الغيب والشهادة الى مناقشاتها الواعية عن الدنيا وأحوالها • وتسأل كوثر أمها وهما منفردتان :

ـ كيف يصنع اذا وجد نفسه وحيدا ذات يوم ؟

فتقول سنية بايمانها الراسخ :

ـ لن يجد نفسه وحيدا أبدا ..

ولأول مرة فى حياته يغازل القراءة وتغازله . ومن عجب أنه انساق اليها بيسر وشغف . وتخلق فى أعماقه ميل جديد نحو الدين فاقتنى من مراجعة ما شاء وهيمن عليه الاطلاع الدينى بقوة مضت تزداد يوما بعد يوم ، وحام حول الأسئلة المحيرة فتطلع الى عالم الثقافة والأشواق بحماس لم يخطر له ببال من قبل . حتى الكتابة حلم بتجربتها حتى قال لنفسه من فوق كرسيه الطبى :

ـ ما أضيق الوقت وأقصر العمر !!

وفى أحد أيام الجمع سأل خاله محمد :

ـ أينبغى أن يفقد الانسان نصف جسمه ليهتدى الى نفسه ؟

فسأله محمد عما يعنيه فأجاب :

ـ فتح لى العجز الأبواب المغلقة .

وراح يحدثه عن شغفه الجديد بالثقافة وفى مقدمتها الدين فسر محمد ورفع عكازته بيمناه قائلا :

ـ طوبى لما يهبنا خصوبة الروح ..

فقال رشاد :

ــ ويخطر لى أحيانا أن أكتب •

فهتف محمد :

ــ الله أكبر !

انها رغبة مبهمة لم تتبلور فى هدف محدد ، ولكنه دخل فى دين الاسلام بالنية والعمل معا • صلى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخارى ويزداد تقبلا لقدره ورضا عنه • وهو سعيد باشتراكه فى النصر والتضحية والبطولة ، وهيهات أن تنغض عليه صفوه بعض الكوابيس التى تنتاب نومه أحيانا أو صور الشهداء التى تلم بخياله أحيانا أخرى • ويتساءل :

ــ لم تعذر على الانسان أن يعيش حياة سعيدة فى هذه الدنيا ؟ !

ثم تساءل فى حيرة :

ــ هل أجد عروسا ترضى بى زوجا ؟ !

وصاحب ذلك ميل المؤشر من الشرق الى الغرب وانبثاق دعوة مصرة الى الانفتاح ، مع تفجر حملة ضارية على الزعيم الراحل فاضت بها الكتب والصحف والمجلات ، وبرز فى ميدانها المفتوح أعداء وأصدقاء ومحايدون فصارت انتقاما وتشفيا ويقظة واعترافا وتقربا • ووقف جيل الأحفاد منها موقف الدهش والبلبلة ، يستوى فى ذلك من أقام على ناصريته

مثل أمين أو من وافقه مثل سهام ، أو من رفض كل شيء مثل على ، أو من آوى الى عقيدة جديدة مثل شفيق .

ــ ألم يعبدوه بالأمس ؟

ــ ألم يكن القائد والزعيم والمعلم والملهم ؟

ــ أى نفاق وأى خسة وأى جبن !

ــ جيل يستحق التصفية ..

ــ من نصدق ؟ ! ..

ــ أنصدق ما يقال الآن ؟ !

ــ ليس بلدا ولكنه مرحاض عمومى .. !

ولم تمر الحملة فى لقاء الجمعة دون اثارة . لم يعد رشاد يبعث على الرثاء ، فقد بات عادة ، وعبر هو الأزمة بشجاعة وتطور بها الى ما هو أفضل . لذلك أفصح محمد عن سعادته بالانقضاض على العصر الناصرى . قال :

ــ ليعلم من لم يكن يعلم ، ولينتبه من فقد وعيه !

فتساءلت منيرة :

ــ هل ننسى القضاء على النظام الملكى ، والجــلاء ، والاصلاح الزراعى ، والتأميم ، وتمصير الاقتصاد ، والقومية العربية ؟ !

فقال محمد متهكما :

ــ سيعترف له المستقبل بفضل واحد باعتباره منشىء

الامبراطورية الاسرائيلية !

فسألته منيرة بمرارة :

ــ أتدرى ما يقول الشباب ؟

ــ انك تقصـــدين الناصريين وحلفـــاءهم من الملاحدة ، أما غالبية الشباب فبخير وعافية وهى تعرف ســـبيلها كما تعرف ربها •

واشترك رشاد فى الحديث قائلا :

ــ لكل عهد ايجابياته وسلبياته ومهمة الأحرار أن يؤيدوا الايجابيات ويحاربوا السلبيات ••

فقالت سنية :

ــ ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذره شرا يره ، صدق الله العظيم •

فقالت منيرة بازدراء :

ــ لا يعلو صوت على النفاق ، هذه هى مأساتنا ••

فقال محمد بحدة :

ــ عرفنا المشانق ولم نعرف النفاق قط ••

فقالت منيرة متهكمة :

ــ اعرفوا أيضا الانفتاح •

فتساءلت سنية :

ــ ماله الانفتاح ؟ •• حتى روسيا أخذت به ••

ــ ولكنه سيعني عندنا الغلاء والخراب •

وعند تلك النقطة غير محمد شراعه قائلا :

ــ نحن نوافق عليه ضمن خطة الانتاج ••

فتساءلت منيرة :

ــ وهل توافق على ذلك الصقور المتحفزة ؟ !

وجرت خواطر سنية فى أسى ، انهم يتحدثون عن كل شىء ، ألا يذكر أحدهم البيت القديم بكلمة طيبة ؟ ! ، وان يكن هذا هو حظ البيت فمن عسى أن يذكر المدفن ؟ ! وثمة نظرة عطف تحبو فوق الشـــاب العاجز متضمنة توســـلاتها الصامتة • البيت يوغل فى القـــدم ، أثاثه يبهت ويتهرأ ، حديقته تحتضر ، أيليق هذا بمقام البطل ؟ ! وقال رشاد :

ــ الحق أن الغلاء يزحف بقوة ، اليكم تجربة مارستها بنفسى ، منذ عام وأشهر عرضت على فيللا بالمعادى بستة آلاف جنيه ، علمت أمس أن صاحبها رفض بيعها بخمسة وعشرين ألفا من الجنيهات !

فقالت منيرة :

ــ ما يقال عن الأراضى لا يصدقه العقل ••

فقال محمد :

ــ وخلو الرجل أصبح خرافة ••

فقال رشاد :

ـ أفكر أحيانا فى تجديد هذا البيت !

فهتفت سنية وقد أشرق صدرها بنور ربها :

ـ خير ما تفعل يا رشاد ، مساحة الحجرة من حجراته أوسع من مساحة فيللا حديثة ، ولا تنس الحديقة المهجورة التى يمكن أن تتحول الى جنة ..

وساءل محمد نفسه هل يجدد رشاد البيت لوجه الله أو يسجل التكاليف كيلا يهضم حق أمه عندما يئول البيت ـ بعد عمر طويل ـ الى الورثة ؟ . لم يتحمس للفكرة ولم يعلق ، وتبادل مع منيرة نظرة ذات معنى دلت على تناغم وساوسهما . أما رشاد ففاجأ الضيوف بقوله :

ـ سأفكر يوما فى الزواج !

اتجهت صوبه الأعين . وسعدوا فى الحقيقة بالخبر الذى كانوا منه فى شك ، ولم تتمالك كوثر أن هتفت :

ـ دعنا نبحث لك عن عروس لائقة !

فقال بجدية :

ـ صبرك ، كل شىء رهن بوقته .

ورسخ الغلاء منذرا بالتعلق ، وانتشر العرب فى الأحياء كالماء والهواء . جاء الغلاء بالوحشية ، أما العرب فجاءوا بالكرم تياهين بموقفهم القومى فى البترول ولكنهم نفخوا فى الغلاء من حيث لا يقصدون . حتى أم جابر الطاهية

طالبت بمضاعفة راتبها لمواجهة الغلاء فتحققت مشيئتها فى الحال ، غير أنها ذهبت ذات يوم ولم تعد ، وعلم أنها سافرت بصحبة ابنها النجار الى السعودية لتعمل طاهية بأجر خيالى • عند ذاك أنذرتهم الحياة بعناء جديد •أجل طالما أثبتت سنية مهارتها الفائقة فى الطهى ولكنها بلغت من الكبر ما لا يجوز معه الاضطلاع بمهمة الطهى الشاقة رغم تمتعها بصحة جيدة يغبطها عليها من يماثلونها فى السن • ورغم أن رعايتها لصحتها لم تهن وان كفت عن صبغ رأسها بالحناء منذ رجع رشاد الى بيته محمولا على أيدى الرجال • تركت الشيب يرعى رأسها بلا حسيب قانعة باخفائه تحت منديل محكم وتلفيعة بيضاء • ولم تر كوثر مفرا من القيام بالمهمة رغم اعتلال كبدها وهزالها وتوسطها الحلقة المفضية للستين ، مستعينة فى التجهيز بأمها وأم سيد • وجدوا فى البحث عن طاهية حتى وافقت — أم عبده — على منحهم نصف يوم بثلاثين جنيها شهريا • والتهمت ميزانية الطعام قدرا لا يستهان به ، يزداد مع الأيام دون توقف ، حتى توارت سنية بمعاشها خجلا وأدركت أنها تعيش عالة على كوثر وابنها • لذلك لم تتردد كوثر أن تقول لرشاد وهى منفردة به :

— ها أنت تفكر فى تجديد البيت والحديقة ، كن حكيما ، الأسعار ترتفع كما ترى ، و بيت — بعد عمر طويل — لن

يئول لنا الا ربعه « الحذر واجب ، فايرادك ثابت وقيمته تقل يوما بعد يوم ..

فقال متمهلا :

ـ لا تنسى أننا نقيم فيه ، وأنني حبيسه ، ويلزمني مناخ طيب ..

فقالت متنهدة .

ـ كما تشاء ولكن عليك بالحكمة والحذر ..

وفاجأهم سليمان بهجت بطلاق منيرة مدعيا في الوقت نفسه أنه يحررها من قيد يعيق حرية ارادتها ويهدر سعادتها دون مقابل حقيقي . ولم يخدع محمد بالطلاء ، وكان بحكم مهنته ونشاطه السياسي ذا قدرة على النفاذ الى الأسرار ، فقال لمنيرة :

ـ المسألة أنه وزوجه يعملان في الاستيراد ، وهي كما نعلم مركز القوة والعقل المدبر فحملته على الطلاق لتستأثر بثمرة عملها !

فقالت منيرة بعتاب :

ـ هذا ما أردته من أول يوم .

فهز رأسه آسفا وقال :

ـ فيللا المعادي تعتبر اليوم قصر استقبال لأغنيـــاء

العرب ، يختلط فيه اللهو بالعمل ، انى أرثى لأمين وعلى لانتسابهما اليه !

فقالت بامتعاض :

ــ حدثنى عن موقف الدولة من هذا الفساد !

ــ لا جدوى من الشـــكوى ، سليمان وزاهية ما هما الا قردان فى حديقة ملأى بالقرود ، جن الناس ؛ فقدوا وعيهم ، يحومون حول العرب ، الذين فوق يتعهرون والذين تحت يشحذون !

وتبادلا نظرة متجهمة ثم سألها :

ــ كيف تواجهين الحياة ؟

فأجابت بوجوم :

ــ كلما مر شهر تساءلت ترى هل نحافظ على مستوى معيشتنا الشهر القادم ؟

ــ مثلك تماما ، لنا أولاد ، من الخطر أن يهبطوا عن حد معين من الحرمان ، لنحمد الله على أنهم وصلوا الى المرحلة النهائية ..

فقالت متهكمة :

ــ ثم تبدأ مرحلة من المشكلات الجديدة ، يا لهم من جيل

محاصر سيىء الطالع ، ألم يكن الأجدر بالعرب أن ينتشلونا من وهدتنا بدلا من أن يجعلوا منا حقلا للتسول والدعارة ؟ !

وكأن على كان يحاورهما عن بعد وهو يقذف بنواياه المتقدة نحو الوجود • يلعن وطنه ومواطنيه ويتربص باللحظة المناسبة التى يهجره فيها الى الأبد • وذات صباح نعت اليه أمه ميرفت هانم حماة خاله محمد ! • لم تفطن أمه بطبيعة الحال الى هزته الباطنية • وقال لنفسه يعزيها :

ـ ماتت فى الواقع منذ أشهر •

المرأة التى وهبته حبا بهيميا غريبا خارقا للمألوف داوى بها جهازه العصبى المختل • خبر معها راحة متجددة • وأنانية متسلطة ، وخيلاء معربدة ، وحبا غير مألوف يتحدى الاكليشيهات الشعرية الجارية ، انتشله من مخالب أزمته وفى الوقت نفسه رسخ رؤيته المتمردة • وقال متهكما .

ـ خير ما فعلت !

وهز منكبيه قائلا :

ـ أخى أمين أسعدنا حظا ••

وكان أمين سعيدا حقا ، يحب بنتا ممتازة وتحبه ، ولكنه باقترابه من نهاية المرحلة التعليمية الأخيرة رأى عن قرب مستقبله المعقد بالمشكلات • على أنه سره أن يسمع هند وهى تردد :

ــ لا مشكلة بلا حل !

فقال لها مغالبا همومه :

ــ ومعنا الحب ، وفيه ما يكفى ٠٠

وكانت هنـــد بخلافه لا تكترث للسياسة ولا الاحاديث العامة ٠ أجل كانت متفوقة كطالبة ، ومتفائلة ، ينحصر اهتمامها فى دراستها .وشئونها الخاصة ومستقبلها وتعنى فى الوقت نفسه باتقان شئون البيت كأنها امتداد لدراستها ، كما كان حبها لأمين أقوى عاطفة فى حياتها ٠ ولم يكن لها من الدين ــ كالسياسة ــ الا قشورولكن الدين تسلل اليها ــ على غير شعور منها ــ عن طريق الأخلاق ٠ لذلك اعتدها أمين ــ وهو يتنفس مناخا ينضح بالفضـــائح ــ لقية لا توزن بمال ٠ أما شـــفيق بن محمد فقد تمادى فى توثيق علاقته بزكية محمدين حتى أحبها ٠ وبهبوط الحب عليه انسربت الى أعماقه الهموم والفكر ٠ ومن قبل ذلك لم يخل ضميره من قلق ٠ كان يداوم على الاتصال بها ويجتر وساوس القلق والمحاسبة ٠ ولما أحبها قال لنفسه :

ــ لا يدرى أحد أين يجد قلبه مستقره !

وكان التفاهم بينه وبين أبيه حميما راسخا ، كابن وأب ، وكمؤمنين فى عقيدة واحدة ٠ وجد فى نفسه الشـــجاعة الكافية كى يعترف لأبيه بعلاقته بزكية محمدين غير مخف عليه

سرا من أسرار حياتها • أصغى محمد اليه كاظما انفعالاته تشجيعا له ورحمة به • وختم شفيق اعترافه بقوله :

ــ أخطأت الفتاة ولها عــذر كما أخطأت ولى عذرى أيضا !

فهز محمد رأسه نفيا وقال :

ــ كلا ، كان بوسعها أن تحافظ على شرفها وكان بوسعك أن تصبر ••

حدس الجواب من قبل فتساءل :

ــ واذا تاب كلانا ؟

فقال محمد وهو يتفحصه بعناية :

ــ التوبة أمل الخاطئين ••

فتردد لحظات ثم تساءل :

ــ أعنى أتوافق عند ذاك على زواجنا ؟ !

وجد نفسه محاصرا وتجرع خيبة أمل مريرة • واستسلم لانفعاله فقال :

ــ اختيار سيىء لن يعفى من عواقب وخيمة !

ــ ظننته ينقذ نفسين ضالتين ••

ــ لا ضمان لذلك ••

ثم بامتعاض كالأنين :

ــ أى حظ سيىء ! ، لم نغق بعد من تجربة سهام المريرة ، وها أنت فى نفس الطريق الوعرة ..

فقال شفيق بأسى :

ــ حسبتك ستبارك قرارى ..

هام فى وادى الخيبة طويلا . وراجع نفسه وانفعالاته . ثم تنهد قائلا :

ــ سمعت رأيى ولكن اذا أصررت على رغبتك فلن أعارض .

ونقل شفيق صورة مما دار بينه وبين أبيه الى زكية فى ألطف أسلوب ممكن . تابعته بانتباه وعمق . لم تكن فى مثل براءته بعد أن طحنتها الحياة من رأسها الى قدميها . كفرت بكل شىء الا ذاتها ، والمال .. ذلك الساحر الذى قدمت له نفسها قربانا . ولم تكن تبنى أى خيال على تخرجها القريب وقد أنضجتها الحياة أكثر من أساتذتها أنفسهم الذين يتاجرون أيضا بطريقتهم الأكاديمية الخاصة . أيغريها هذا النساب بالزواج ؟ . وما قيمة الزواج منه ؟ . وما الداعى الى تحمل احتقار أهله ؟ ! . ثم انها لا تحبه كما يتصور . انهم يصدقون أى كلام يند عن جسد المرأة . وان لم تنكر أنه أوثق الزبائن علاقة بها وأقربهم مودة الى نفسها . ولم ترتح لادلاله وهو يعرض عليها الزواج ، ولا عن قوله « الاقلاع عن الحياة

الفاسدة » • أين هم المحترمون ؟ • ولما سألها عن رأيها أجابت بوضوح :

ــ غير موافقة !

تساءل بذهول :

ــ حقا ؟ !

ــ لا تغضب ، فكر قليلا وستقتنع بأنك غير أهل للزواج !

فتساءل بانكار :

ــ أنا ؟ !

فقالت باسمة :

ــ وأنا أيضا !

واختفت من حياته كوهم • وكاد يجن • وبالتحرى المحموم عرف أنها اهتدت أخيرا الى الطريق العربى ، وأنها وثبت وثبة موفقة الى شقة مفروشة آخذة معها أمها الكادحة • طارت من قفص الحياة اليومية كما طارت أختها من قبل ، وارتفعت فوق تطلعات طبقته • وكان محمد يلاحظه بقلق ، ويعجب لصمته • وذات يوم سأله :

ــ ماذا فعلت يا بنى ؟

فأجابه بايجاز :

ــ اقتنعت برأيك !

لم يصدقه الرجل الخبير ولكنه تنهد بارتياح قائلا :

ـــ فليحفظنا الله بعنايته ٠

ـــ ولكن الزواج ضرورة لأمثالى فما العمل ؟

ارتبك محمد وشعر بالقهر ، ثم قال محتدا :

ـــ ما أجدر أن نوجه هذا السؤال الى وزير التخطيط أو الى المجموعة الاقتصادية !

وبعد فترة صمت تمتم :

ـــ لنضع ثقتنا فى الله سبحانه ٠٠

وتخرج شفيق وابن عمته أمين على حين انتقل على وسهام وهند رضوان الى السنة النهائية ٠ وجند شفيق وأمين ٠ ووجد على فرصة السفر الى الخارج ضمن رحلات الطلبة الموسمية ٠ سافر ولكن أحدا لم يره بعد ذلك ٠ وأرسل ـــ من ألمانيا ـــ خطابا الى أمه يخبرها فيه بأنه وجد عملا ـــ كعامل ـــ فى مصنع ، وأنه لدراسته العلمية اعتبر عاملا فنيا ، وأنه ينوى اتمام دراسه عندما يتقن اللغة الألمانية ، وعلى أى حال فلن يرجع الى مصر أبدا ٠ أعادت منيرة قراءة الخطاب بعينين دامعتين وقالت لنفسها :

ـــ عثرة جديدة تضاف الى سوء حظى !

وبتكليف منها أبلغ محمد الخبر الى سليمان بهجت ٠ وسر الرجل به قائلا :

ـــ أحسن صنعا !

ثم واصل ضاحكا :

ـ سأعثر عليه فى احدى رحلاتى لأبارك خطوته ..

فتساءل محمد :

ـ أما كان الأوفق به أن يصبر عاما حتى يحوز شهادته ؟

ـ هرب من التجنيد ، وله حق !

وتلقى البيت القديم الخبر بهدوء نسبى اذ لم نعد تهزه الأنباء السيئة . غير أن سنية قالت :

ـ لك الله يا منيرة ..

فقالت كوثر :

ـ حظها أفضل من حظى !

فقالت سنية بعتاب :

ـ ابنك جدير بالاعجاب لا الرثاء .

رغم أنه لم يحقق الا بعضا من آمالهـا . أجل سدت الثقوب ، وسنفرت الأرضية ، وطليت الجدران فشعت رونقا ، ونجدت المراتب والأغطية والمقاعد والكنب ، واتفق مع بستانى على تنظيف أرض الحديقة وغرس ياسمين ولبلاب أسـفل الأسوار لتكسو الخضرة الأسياخ الصدئة ، وتشذيب البقية الباقية من النخيل والبلخ . سرت كثيرا وسعدت ولكن أين هذه الحديقة الفقيرة من الجنة الموعودة ؟ ! . وخفف من فتورها وضاعف من امتنانها ما تطلع عليه يوما بعد يوم مما ينفق على

البيت • رشاد ينفق بسخاء كأنه رب البيت تاركا المعاش لنثرياتها • كيف كانت تمضى الحياة لولا يده المبسوطة ؟ ! • وكأنما كانت تشاركه أفراحه فى سياحته اليومية بين الكتاب والراديو والتلفزيون ، وسهرته الأسبوعية مع زواره وسماع ضحكته المترعة بالسرور • وها هو يحلم بالزواج والكتابة وينتظر مزيدا من الضياء • وآمن رشاد بأنه حقق حلم جدته المحبوبة • وكم سره أن يجد منها استجابة قلبية لأحلامه • فهى ــ بخلاف أمه ــ تشجعه على الكتابة وتقول له :

ــ عرفت الحرب والسلام ، ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

وهى الوحيدة فى الأسرة التى تتفق معه على حب زعيمى الثورة ، السلف والخلف معا ، وتقول :

ــ لكل منهما مزاياه وأياديه أما الأخطاء فسبحان من له الكمال وحده !

وقال يوما لزوار الجمعة من أهله :

ــ تبدون أحيانا كأنكم فقدتم امل ، أنا وجدتى لا نفقد الأمل أبدا ••

فقالت منبرة بمرارة :

ــ عربدة الغلاء أنستنا النصر !

ثم تساءلت متنهدة :

ــ وأين على ؟ !

وحمل محمد على الزعيم الراحل كعادته وقال :

ــ كل ما نعانى من شر فمن صنع يديه ..

فتساءلت منيرة :

ــ وأخطاء الانفتاح أهى من صنع يديه أيضا ؟ !

فقال بايجاز :

ــ انى راض عن الرئيس الحالى باعتباره التمهيد لدولة الاسلام !

وساءل رشاد نفسه « متى تنفرج الأزمة ؟ » . وعقب ذهاب الزوار زارت سنية ــ كالعادة ــ صورة القناطر التذكارية . ساق كرسيه مقتربا منها ورنا الى الشباب المخصب للصورة وسألها مداعبا :

ــ تحنين للشباب يا جدتى ؟ !

فقالت بشرود :

ــ انى أنظر وأتساءل من كان يتصور ؟ !

وخطرت له فكرة مشرقة فقال :

ــ ليست الحرب هى التجربة الوحيدة فى حياتى ولكن أيضا هذه الصورة ذات المصائر العجيبة !

فتمتمت :

ــ فكرة !

ورجعا الى مجلسهما وآخر شعاع للشمس يتقلص مودعا

حجرة المعيشة • وتذكر اشارات خاطفة كانت تصدر عنها فى أحوال نادرة عن جدودها لم يهتم بها أحد قانعين جميعا بمعرفة جدهم صاحب البيت والأرض • غير أن رغبة جديدة فى معرفة كل ما يمكن معرفته غزته بسحر جديد فقال لها :

ـ أود أن تحدثينى عمن عرفت من جدود يا جدتى •

فانبسط وجهها وسألته :

ـ أتريد أن تكتب عنهم أيضا ؟

ـ ان استحقوا ذلك !

ـ انهم يستحقون وزيادة !

وداری وراء ابتسامة عدم تصديقه وهو العليم بحساسيتها ونظرتها الخاصة للأمور • قال :

ـ انى شديد الرغبة فى الاستماع •

تبدت مستجيبة متحمسة واندفعت تروى قصة جدودها كأنما كانت تنتظر هذا الاذن منذ دهر طويل •

قالت :

ـ أقدم جد سمعت عنه كان يدعى فرج ، من الصعيد الجوانى ، وكان قويا ، رزقه يأتيه من قوته ، ولكنه يقبل الهدايا ولا يغتصب ، فأحبه الجيران بقدر ما هابوه . وكان وزوجته يؤاخيان الأرواح ويعرفان الغيب ••

دهش رشاد • ودهش أكثر لما طالعه فى وجهها من الجدية • وما تمالك أن ضحك قائلا :

ــ هذا يعنى أنه كان قاطع طريق !

فهتفت محتجة :

ــ لو كان كذلك ما حدثنى عنه أحد بكلمة !

ــ لكن هذه الأوصاف •• ؟ !

ــ بهذه العقلية يا حبيبى يعتبر حكامنا الأجلاء قطـــاع طرق !

ــ تعتبرينه اذن من الحكام ؟

ــ فى بيئته ، لم لا ؟ !

وتظاهر بالتسليم ليشجعها على الاستمرار فقال .

ــ لا يخلو رأيك من وجاهة يا جدتى ••

فمضت بثقة :

ــ وبلغ المائة ولكن قدمه زلت وهو فى قمة العمر •

فاشتد انتباهه ولكنها بدت كأنما تريد أن تعبر فوق تلك النقطة فقال بتوسل :

ــ الحقيقة يا جدتى والا فما جدوى الحديث ؟ !

فابتسمت فى حياء وقالت بصوت خافت :

ــ يقال انه أغرى بنتا فى الخامسة عشرة !

فكتم ضحكة كادت تفلت منه وهمس :

ـ شيء يفوق الخيال ••

ـ انها زلة ولا شك ولكنه كان فحلا !

ـ وماذا فعل أهل البنت ؟

ـ لا علم لي بذلك ، ولكنه مات بعدها بقليل بغدرة جمل عضه •

الحق أن جدته التي استوت أمام عينيه كمثال للرصانة والقوة والثقافة ، الحق أنها تملك جانبا خفيا أشبه بالأسطورة يحتار الانسان في تقييمه • واذا بها تسأله :

ـ ما رأيك ؟

ـ رجل عظيم حقا ولكنني أخشى أن يسيء الى سمعتنا في نظر الناس العاديين ••

ـ ألم تصادفك أحداث مسيئة للسمعة أكثر من زلة رجل في المائة ؟ !

فقهقه عاليا ثم قال :

ـ استمري يا جدتي •

فواصلت والنشوة تورد وجنتيها الذابلتين :

ـ الجد التالي يدعى غزال ، الشهير بحرك ، اذ فرض عليه رزقه التنقل المتواصل بين قرية وأخرى سعيا وراء الصيد والبيع ، لم يعاشر أسرته الا لماما ، فلم ينعم بالعلاقات الحميمة ، كأنه مطارد ، ولذلك وهنت علاقته بالغيب والأرواح ،

ولم يعرف الاستقرار ، ولا الرفاهية ، وشغل مسيرته بالغناء متشكيا من الزمان ، حتى عثر على جثته ذات يوم ملقاة فى مصرف ، ولم يستدل على قاتله فقيل انه انسان وقيل انه حيوان وقيل انه عفريت ..

ووهبت دقيقة صمت للرثاء الذى تجلى فى عينيها ثم قالت :

ـ من شدة حزنى عرفت سر مصرعه ..

فتساءل رشاد :

ـ كيف يا جدتى ؟

ـ بالحلم المضىء ، رأت بدويا قاطع طريق وهو يخنقه ليسلبه ماله ، ثم جاء ذئب فنهش بطنه ، وشهد الواقعة من أولها عفريت ساحر هو الذى رمى به فى المصرف !

وتبادلا نظرة طويلة حتى سألته :

ـ ما رأيك ؟

فتساءل بارتباك :

ـ أيستحق غزال أن يؤرخ له أيضا ؟

فقال بجدية أدهشته :

ـ كيف لا ؟ ، وهل قدر لمصرى أن يلى مكانة أسمى من مكانته فى زمنه ؟ ، عاش مكافحا ومات شهيدا !

فقال مجاملا :

ــ كلامك كله حكمة يا جدتي ••

فقالت بعتاب :

ــ حذار من السخرية ، انى أنضج عقل فى هذه الأسرة المبعثرة بين النزوات وسوء الحظ !

ــ ثقى من جديتى واستمرى ••

فقالت باسمة :

ــ ثم جاء فرج ، فرج الثانى المتسمى باسم جده ، نهض لحمل الأعباء بعد مصرع ابيه ، فعدل عن حياة التجوال عملا بنصيحة أمه ، فاختار عملا بين بين ، يقوم على الحركة ولكن فى القرية والسوق ، يسرح بالأغنام ويبيع اللبن ، فنعم بحياة مستقرة عادية وعشق الله والنساء ، وقرر ذات يوم أن يفجر قنبلة فى بيئته العائلية الساكنة ••

ــ قنبلة ؟ !

ــ أشهر اسلامه وتسمى باسم محمد المهدى !

فتساءل رشاد :

ــ كيف دخل جدنا الاسلام ؟

ــ أعلن أن النبى عليه الصلاة والسلام زاره فى المنام وعرض عليه الاسلام فقبله دون تردد ، أما أهله فأكدوا أنه عشق فلاحة مسلمة !

ــ ورأيك أنت يا جدتى ؟

ـ سيرته بعد ذلك شهدت له بالصـــدق ، وقد نذر بكريه للأزهر ، وهو الشيخ عبد الله المهدى أبى وجدك !

ـ هذا جدنا المعروف ..

ـ لعل الوحيدة التى تذكره هى كوثر أمك ، وقد عمل أول حياته مدرسا ، وكان أيضا يرتل القرآن بصـــوت عدب ، ثم اشترى أرضا وتفرغ لزراعتها فعرف بمهارته كما عرف بورعه ، ولما اجتاحه الروماتيزم إنتقل الى حلوان وشيد هذا البيت وكان قطعة من الجنة .. !

تأثر رشاد بأريحية جدته ونشوتها أكثر مما تأثر بسير الجدود أنفسهم . ولم تكن تبلورت لديه فكرة عن نوعية الكتابة التى سيختارها ولا عن ضرورة ـ أو عدم ضرورة ـ اشتراك الأجداد فيها . غير أن نشوة جدته أضـــفت على الرجال الغابرين سحرا خاصا نفخ فيهم ضياء فى مواقعهم الموغلة فى الزمان فأجل قراره الى حينه . وفكر من جديد فى بعث الحديقة وتحقيق حلم جدته الملح .

وقال لأمه :

ـ ليتنى فكرت فى شراء هذا البيت قبل الانفتاح ..

فقرأت كوثر أفكاره وقالت :

ـ ما فات فات ، تذكر ما سبق أن قلته لك .. ولا تنس

الغلاء الذى لا يريد أن يقف عند حد •• ويحسن بك أن تفكر في شيء واحد هو الزواج ••

ــ تمنيت لو أتزوج هنا ولو نظير أجر أدفعه للمستحقين ••

فقالت كوثر باهتمام :

ــ عندى فكرة أحسن ، أن تبيع الأرض ، وتكتفى بالعمارة ، وبثمن الأرض تشترى شقة في احدى عمارات التمليك التى تقام فى حلوان وتواجه أيضا تكاليف الزواج ••

ــ ونترك جدتى وحدها ؟

فبادرته :

ــ انى باقية معها لآخر العمر ، المهم متى تشرع فى الزواج ؟

فضحك قائلا :

ــ أرينى همتك !

فهتفت متهللة :

ــ وكلف بذلك أيضا جميع أصدقائك ••

وتخرجت سهام وهند رشوان فى عام واحد ، أما هند فانتظرت خطاب التعيين الذى لن يصل قبل عام ، وأما سهام فقررت تقديم رسالة ماجستير طامحة الى وظيفة معيدة اعتمادا على تفوقها البين • وأنهى شفيق وأمين مدة التجنيد فألحق الأول مهندسا بشركة الملاحة والثانى مهندسا بشركة الصناعات

الكيماوية • وهمست ألفت فى أذن سهام بأن محاميا فى قضايا الحكومة يسعى لخطبتها فارتعدت وقالت :

ــ لن أفكر فى ذلك حتى أحصل على الماجستير •

فاعترضت ألفت قائلة :

ــ ولكن ••

غير أنها قاطعتها قائلة :

ــ لى أمل كبير فى بعثة الى انجلترا •

ــ والعمر ؟ !

ــ لا أهمية لذلك !

وعلم محمد برأيها فقال لها بحدة :

ــ انك غير محتملة •

فقالت ملاينة :

ــ لى خطة يا بابا •

فصاح :

ــ خطة كالقطران !

واشتد غضبه فقال لها :

ــ لم يؤذنى أحد فى حياتى ــ باستثناء عبد الناصر ــ مثلما آذيتينى !

وحلمت سهام بالبعثة كملاذ أخير ، تلوذ به بمبدئها وجرمها الخفى ، وهما ارثها عن حبيبها الذى تلاشى فى غمضة عين •

وجو أسرتها كان ينذرها دائما بالتهديد والخوف حتى تمنت هجره وشارفت مقته • وخيــل اليها أن أباها ــ وشفيق أيضا ــ يرمقانها بعين الريبة • وان يكن فى ذلك شك فما لا شك فيه أنهما لا يباركان موقفها من الحياة • وكل يوم فهما يزدادان اسلاما فيزدادان خطرا وتزداد هى غربة • وأمها لا أمل فيها ، فهى محبة لأبيها لدرجة العبادة ومؤمنة ببطولته ، وهى فى الوقت نفسه ــ على رقتها ــ غير موافقة أيضا على موقفها • فكيف اذا انكشف سرها وأعلنت خسائرها !• وجمعت المشكلات بين شفيق وابن عمته أمين • سأله شفيق :

ــ ما قيمة المرتب ؟

فأجاب أمين ببساطة :

ــ لا شىء •

ــ ويهمنى جدا أن أتزوج •

ــ أنا عندى خطيبتى ولا أدرى كيف أتزوج !

ــ بنات الهوى ارتفعت أسهمهن فى بورصة العرب لدرجة خيالية ••

ــ نحن محاصرون من جميع الجهات ••

ــ وقد تيأس خطيبتك فترحب بأى قادر •

فقال أمين بثقة :

ــ ليست من هذا النوع ••

ـ لو أني مكانك لكتبت كتابي لأروح عن نفسي تاركا المستقبل للمستقبل !

وحليث الفكرة لأمين ولكنه راح يقلبها على شتى جوانبها قبل أن يندفع اليها كالمجنون • ووجد بابا لم يطرقه فقرر أن يطرقه • وقرر أن يطرقه سرا فأخفى عزمه حتى عن أمه المحبوبة • ذهب الى فيللا المعادى لمقابلة أبيه سليمان بهجت • انه يزوره من حين لآخر زيارات بريئة ، وفى كل مرة يخيل اليه أن الفيللا تزداد تألقا وترفا • وكالعادة لقيه أبوه برقة معهودة ، يسأله عن مامته وجدته وسائر أفراد الأسرة • وحضرت زاهية المقابلة فهى لا تترك الابن يخلو الى أبيه أبدا • ولم يجد أمين بدا من عرض قضيته على مسمع منها • قال :

ـ انى خاطب كما تعلم يا بابا وأريد أن أتزوج ••

لم ينظر نحو زاهية ولكنه شعر بأنها ماجت بالانفعالات • وتساءل الأب ببلاهة :

ـ وماذا يمنعك ؟

فضحك محرجا وقال :

ـ أنت أدرى يا بابا •

هز الرجل رأسه وقال :

ـ طالما أفهمت الجميع أننى لا أملك الا جدران هذه الفيللا !

فتساءل برجاء :

ــ ولو على سبيل القرض ؟

فقال سليمان بهجت بأسى :

ــ ليس لدى ألا الحزن والأسف .

وتدخلت زاهية مى الحدبث قائلة :

ــ يا باشمهندس ، أنتم أغنياء ولست فى حاجة الى قرض .

فتحول اليها كارها ومتسائلا :

ــ أفندم ؟

ــ هل لديك فكرة عن ثمن بيتكم القديم بحلوان ؟

لم ينبس فقالت :

ــ ألف شركة أجنبية مســتعدة أن تشتريه بمليــون ، سامعنى ؟ !

ثم وهى تضحك :

ــ أرأيت أنكم من أصحاب الملايين ؟ ! .. أنا مستعدة أن أبيعه لكم فى يوم !

وغادر ىبن فيللا المعادى خائب المســعى ولكن الملايين تتطاير من خياله معيدة خلق الدنيا من جديد . أجل ان البيت ملك جدته ، وهى نفسها تعيش بمعاش لا جدوى منه فى هذا الزمن . البيع يغنيها ويغنى أولادها وأحفادها . وحتى متى ينتظر أبناؤها ؟ ! كوثر ومحمد ومنيرة يدنون من الستين ويعانون حياة متقشفة . جدته فى الثمانين ، وهو يحبها ،

أو لا يكرهها ، وصحتها أحسن من صحة كوثر ومنيرة أمه ، وثمة حل متاح يعد الجميع بالسعادة • وهو خير على أى حال من رصد موتها باعتباره مفتاح الفرج للجميع • وبشر بفكرته لدى أمه وخاله محمد وابن خاله شفيق وبنت خاله سهام • قال :

ــ وتتنزل لكل مستحق عن حقه فتعفى التركة من الضرائب ويبقى لها ما يجعلها من الأغنياء الى آخر العمر •

وطابت الفكرة لمن يغالبون وحش الغلاء • وقد خطرت لمنيرة كما خطرت لمحمد من قبل ولكنهما أشفقا من اعلانها رحمة بأمهما ، عاشقة البيت ، والحالمة أبدا باعادة الشباب اليه • وما الضرورة فى تكدير صفو امرأة محبوبة فى الثمانين من عمرها ؟ ! ولكنهما غلبا على أمرهما ازاء حماس الأبناء المرهقين بالأزمة ، وقال محمد :

ــ ليكن فى علمكم بأننا ــ أنا ومنيرة ــ لن نكون البادئين بفتح الموضوع •

ولم تحمل سهام للمشكلة كلها هما وقالت لنفسها :

ــ فليأكل بعضهم بعضا !

وانضم أمين وشفيق الى لقاء الجمعة التالى فأحدث حضورهما دهشة وقالت سنية :

ــ حسن أن تتذكرا بين الحين والحين أن لكما جدة !

فانقبض قلبا محمد ومنيرة على حين تربص شفيق وأمين بالفرصة المناسبة • وجرى الحديث بعيدا عن النيات المصمرة ، آخذا فى مجراه زواج رشاد فى المقدمة ، ثم كالعادة احتلت السياسة مكانها الدائم المرموق • قال رشاد :

ــ النصر لم يبشر حتى الآن بسلام دائم •

فقالت منيرة بلا تركيز حقيقى :

ــ بل ثمة اشــارات فى الصــحف الى احتمال حرب خامسة !

فقالت كوثر بمرارة :

ــ كأنها مباريات الكرة الدورية ••

مضى الحديث فى درجة حرارة منخفضة على غير عادة والضمائر مضطرمة بالمهمة الثقيلة التى جاءوا من أجلها • وساد صمت غير طبيعى • وتبادل أمين وشفيق نظرة متضمنة دعوة بالتقدم • واخترق أمين جدار الحرج فقال لجدته :

ــ معنا كلام يستحق أن يسمع !

فرمقته بنظرة بريئة باسمة فقال :

ــ تعلمين طبعا بمتاعب الناس فى هذه الأيام ، خاصــة الشباب الذين يبحثون لأنفسهم عن مستقر ••

فقالت سنية بحنان :

ــ قلبى معكم والله لن ينسى عبده !

فقال شفيق :

ــ ولكن يوجد حل يا جدتى •

ــ يسرنى أن أسمع ذلك •

ــ الحل بيدك أنت !

فدهشت سنية وتساءلت فى حيرة :

ــ أنا ؟ !

فقال أمين :

ــ انك تملكين مليونا من الجنيهات !

قلبت المرأة عينيها فى الوجوه ضاحكة وقالت :

ــ مليون ! ، ما أملك الا معاش جدكم الذى تتناقص قيمته كل طلعة شمس ••

فقال شفيق :

ــ هــذا البيت القديم يســاوى اليوم مليونا بالكمال والتمام ••

تراجع جذعها حتى التصق بمسند الكنبة ذات الغطــاء الأخضر كأنما تلقت ضربة ، وتمتمت بصوت مبحوح :

ــ البيت القديم !

وراحت كالمستغيثة تنقل بصرها من رشاد الى محمد الى منيرة ثم تساءلت بحدة :

ــ فيم تفكرون ؟ !

شعر محمد بأنه ينبغى أن يشترك فى الحديث ليصد عنه أى مضاعفات فقال برقة :

ـــ ماما ، معذرة ، انهم متأزمون ، ويروحون عن أنفسهم بالشكوى ..

فقالت بوجه متجهم :

ـــ انى متألمة .

فقال بنبرة ملاطفة :

ـــ معاذ الله ، امنحينا بعض الصبر ، لا بأس من شرح الفكرة ، وأنت فى النهاية صاحبة الحق المطلق فى القبول أو الرفض ، علم الله أننى كاره للحديث ، ولكن هل يجوز أن نتجاهل أنات أبنائنا ؟ !

فقالت سنية بامتعاض شديد :

ـــ سأصغى اليك وأنا كارهة !

فقال مستعينا بمهارته المهنية :

ـــ عم تمخض تفكير الأولاد ؟ ، يقولون ان الشركات الأجنبية تشترى الأراضى بأسعار خيالية ، ويؤمنون بأنه يمكن أن نبيع بيتنا بمليون ، لا عليك بعد ذلك أن تشترى شقة أو فيللا صغيرة مناسبة وأن تستثمرى بقية المال فى مشروعات تدر أرباحا محترمة ، فى الوقت نفسه تمدين الأحفاد بما يمكنهم من تأسيس حياتهم وتحقيق آمالهم ، خاصة وأن معاشك

لا خير فيه وانتفاعك بالبيت قاصر على الاقامة المجانبة ، هذه هى الفكرة ، وهى تستحق المناقشة ، ولن يحملك أحد على قرار تأبينه ••

اشتد التأثر بسنية لحد أنها لم تستوعب حديث محمد ، غاية ما أدركته أنهم ائتمروا دعا للانقضاض على البيت الذى لا تتصور للحياة معنى خارج جدرانه • قالت :

ــ ضقتم بحياتى والله لا يحب ذلك !

فهتفت منيرة :

ــ ماما ، كيف هان عليك أن تقولى ذلك ؟ •• نحن نحبك أكثر مما نحب أنفسنا ••

ــ عندما رأيتكم داخلين ملكنى شعور غريب ••

فضحك محمد مداريا مرارته وقال :

ــ لا •• اطردى هذا الشعور من فضلك ••

ــ وهذا تأويل حلم رأيته الليلة الماضية !

ــ تأويله خير ولا يمكن أن يكون الا خيرا !

فقالت بحزم :

ــ اذن فلنغير الحديث ••

ولكن أمين تساءل :

ــ ألا يحزنك ألمنا يا جدتى ؟

فقالت بانفعال :

ــ كيف لا ، انكم تعيشون فى خواطرى وأحلامى وان تجاهلتم وجودى لا فرق بين من يقيم منكم فى القاهرة أو فى المانيا •

ــ انك جدتنا المحبوبة فى جميع الأحوال •

فلم تستجب لقوله وقالت :

ــ توجد فرص كثيرة فيما نقرأ ونسمع ••

فقال لها شفيق :

ــ أعطنا مثلا •

ــ البلاد العربية ، أيضا ممكن أن يبدأ أمين حياة الزوجية فى شقة العباسية ••

فقال أمين :

ــ أى زوجين يودان الاستقلال بمسكن ••

وقال شفيق ،

ــ والبلاد العربية ليست تحت طلب الطالب ••

فقالت بحرارة :

ــ فكروا ولكن بعيدا عن هذا البيت ••

فقال أمين :

ــ يبدو أنك لم تفهمى الموضوع يا جدتى •

فقالت بعناد :

ــ لا حاجة بى الى ذلك ، ولن يمس البيت وأنا حية !

ونظرت فيما أمامها وقالت بتعاسة لا تحل بها الا فى الملمات :

ـ لم يبق من العمر الا قليل ، اتركونى فى سلام حتى يستردنى الله الرحيم ..

فقالت منيرة بعصبية :

ـ ولا كلمة أخرى فى الموضوع ومعذرة يا ماما ..

ولما غادروا البيت أسبلت المرأة جفنيها فى اعياء وغمغمت لنفسها :

ـ الله يرحمه ويغفر له !

ودون دافع واضـح قررت أن تمضى صباح الغد فى الحديقة اليابانية قبل أن ينطوى الخريف ويهل الشتاء . لم تعد فى نشاطها الأول ، وكثير من الذكريات تتلاشى ، وكثير من الأحلام تتراءى ولا تخلو من كوابيس . ثم انها تغيب كامرأة وتتجسد فى صورة ورقة مالية يحوم حولها الجشع . ومضت على مهل حتى وقفت أمام الصورة التذكارية وهمست :

ـ أنت الدليل الحى على أن السعادة حقيقة لا خيال .

وقالت كوثر لرشاد :

ـ اشرع فى بيع الأرض وحسبك ما رأيت وسمعت ..

فهز رأسه موافقا وقال :

ـ لكنى لن أضن على الحديقة ببعض المال ••

ـ لا أدرى معنى لذلك ••

فقال برقة :

ـ جدتى تحبنى أكثر من الجميع وعلى أن أبادلها حبا بحب ••

أما الراجعون الى القاهرة فقد جمعهم الديزل وهم فى غاية من الانفعالات المتضاربة • قال أمين :

ـ ما كنت أتصور أنها تملك هذه الطاقة الكبيرة من العناد !

فقال شفيق :

ـ لا تريد أن تفهم ولا أن تتفاهم ••

ـ لا أريد أن أعمر حتى أبلغ تلك الحال ••

فقالت منيرة بحدة :

ـ تذكرا أنكما تتحدثان عن أمنا !

واختلطت الهموم الشخصية بالهموم العامة ، وآمن كثيرون بأنها هم واحد ذو أسماء متعددة ، ألا يكون الحل فى الاسلام ، فى الديموقراطية ، فى الشريعة الاسلامية ؟ ! • المهم ألا يكون حلا سبق أن جرب وأسهم فى تجميع الثمار المرة الراهنة • ليكن السلام ولكن ما باله يتدلل ويتعذر ؟ • ولكن الديموقراطية ، ها هى الأفكار تتحاور وتتصارع ، وتتطور من

منابر الى أحزاب صريحة ، بل ها هو الوفد يتعملق كمارد حطم قمقمه ، وتهتز الأرض وتنشق عن قرارات انضباط تعيد المارد الى قمقمه ولكن الأحزاب الأخرى تتكون وحتى اليسار يكرس له حزب شرعى لأول مرة • وينادى كل حزب بتطبيق الشريعة الاسلامية ويشترك اليسار فى النداء ، ويشعر محمد بأنه لم يكن فى يوم من الأيام أقرب الى هدفه مما هو اليوم • ومع ذلك قال بأسى :

— حتى الشيوعيون لهم حزب أما نحن فلا حزب لنا !

وارتفعت الأصوات المعارضة ولكن الأسعار ارتفعت أكثر وامتلأت الأسواق بالسلع المستوردة ، استهلاكية وكمالية ، وتحدث المرهقون عن طبقة جديدة من أصحاب الملايين ، كالوباء ، يعرف بآثاره وعواقبه ولا ترى مكروباته بالعين المجردة • واذا بالسماء تمطر دهشة أنست كل ذى هم همه • دهشة أسطورية لم يتصورها خيال من قبل • دهشة تتميز بخواص الخوارق وسجايا المعجزات ونشوة الأساطير • عندما عرف وأعلن أن أنور السادات سيهبط بشخصه فى أرض اسرائيل ! • وتجمع كثيرون من سكان الأرض أمام التلفزيون ليشاهدوا بأعينهم كيف يتحدى الارادة البشرية مجرى التاريخ لتحوله عن مساره الحتمى عنوة وبلا سلاح • وتجلى اللقاء بين أعداء الأمس ، تصافحت الأيدى ، تبولدت

الضحكات ، والخطب ، والصلوات ، وتدفق ماء عذب من شقوق صخر صلد لتصب فى مجرى ملىء بالحصا • واستأثرت الزيارة العجيبة بحديث الجمعة فى البيت القديم •

قال عنها رشاد :

ــ كأنها غزو القمر •

وتجلى الفتور فى وجهى محمد ومنيرة ، أخيرا وجدا ما يتفقان فيه • قال محمد :

ــ هذه هى الثغرة التى لا انسداد لها ••

وقالت منيرة :

ــ انه استسلام لا سلام ••

فتساءلت كوثر ببرود :

ــ أتريدون حربا بلا نهاية ؟ !

وبدت سنية مطمئنة وسعيدة وان خفق قلبها طيلة الوقت حبا وعطفا على رشاد • ونظرت صوب محمد وسألته .

ــ ما رأى شفيق ؟

ــ انه مسلم مثلى تماما •

ــ انى مسلمة قبلك بربع قرن ، وماذا عن سهام ؟

فقال بسخرية :

ــ متفقة معنا لأول مرة !

ــ وألفت ؟

ـ أظنها مثلك يا ماما !

فالتفتت نحو منيرة قائلة :

ـ وأمين على رأيك ؟ ، طبعا ، أخيرا اتفقوا !

ورجعت بعينيها الى محمد وقالت :

ـ انك رجل تغوص بين الناس ، أصدقنى بربك ما رأيهم ؟

فمط بوزه ممتعضا وقال :

ـ الشعب مع السلام بلا عقل !

فقالت سنية :

ـ رأيت اســتقبالهم لرئيس عنــد عودته فلم أدهش يا ابنى ، كان الاستقبال مبايعة لشخصه من جديد ومباركة لخطوته ، هم الذين يموتون عند الحرب ويجوعون عند اللاسلم واللاحرب ، ورأيهم رأى الفطرة السليمة بعيــدا عن شرك المذاهب ..

فقال محمد بصلابة :

ـ الجهاد لا يعتل بالعلل ، والحق كالشمس ..

ـ كل شىء مشروع فى سبيل الدفاع عن النفس !

فقالت منيرة :

ـ يبدو يا ماما أننا خسرنا العرب ..

فقال محمد :

ـ دمغونا بالخيانة ولهم حق .

فسألته باهتمام :

ــ ماذا يقول الناس عن ذلك ؟

ــ انهم حانقون على العرب ، نسوا التــاريخ قديمة وحديثة ، ومهما قيل عن أخطائهم فأياديهم لا يمكن أن تنسى ..

فقالت سنية :

ــ أوافقك على ذلك ، ولكن الصواب يتوارى عند احتدام الخصام !

ــ بدأ أناس يقولون مالنا وللعرب ، لسنا عربا ، هكذا تبدأ فترة مأساوية فى تاريخنا الحافل بالمآسى ..

فقالت بهدوء :

ــ الصواب يتوارى عند احتدام الخصام ولكنه لا يفنى أبدا ..

فقالت منيرة بازدراء :

ــ ليس أمامه اختيار فاما يدور فى فلك الولايات المتحدة وأما الموت جوعا !

ولكن العجوز كانت متفائلة . بل عادت تحلم بتجديد شباب البيت والحديقة ، والمدفن أيضا .

وفى ذلك الوقت عهد رشاد الى خاله محمد بمهمة بيع الأرض وشراء شقة له فى حلوان فقام بالمهمة على خير وجه ، واشترى له شقة جديدة فى عمارة للتمليك فى شارع الأمين.

غير بعيد من شارع ابن حوقل • أما مهمة البحث عن زوجة فقد تعثرت رغم كثرة الباحثين • ولدى كل فشل كانت كوثر تثور غاضبة وتقول :

ــ لولاه ما كان نصر ولا سلام !

وأخيرا أحرزت منيرة أول توفيق مع مدرسة فى دائرتها التعليمية • كانت أرملة لمدرس فى الثلاثين من عمرها ــ تكبر رشاد بعامين ــ وأم لغلام فى العاشرة ، تدعى سميحة ، وقد شرطت أن يقيم ابنها معها • واستمعت كوثر للمواصفات والشروط بفتور ولكنها سرعان ما غيرت رأيها عندما زارت سميحة فى عين شمس ببيت والدها ، فأقرت لها بالوسامة وقوة الخلق • ودعيت للغداء مع منيرة فى البيت القديم ــ نظرا لظروف رشاد ــ فتم التعارف والارتياح من جانب رشاد ، فقال عقب انصرافها :

ــ نعمة من الله ••

وتنبأت له جدته بالتوفيق والذرية • ونشطت كوثر وسميحة مع معونة محمد لتجهيز الشقة الجديدة ، كان من المتفق عليه أن يقوم رشاد بالأعباء المالية • وفى نفس الوقت اتفق رشاد ــ بوساطة محمد أيضا ــ مع مقاول حدائق ، لزراعة الحديقة بشجيرات الورد والأزهار كالفل والقرنفل والنرجس والحناء والنسرين وأشجار النخيل والكافور والسرو

والعور والأكاسيا • واستعادت روح العجوز مرحها فشعشع رأسها بالآمال وقالت :

ـ ما دام أمكن هذا فكل شيء ممكن ••

وتم زواج رشاد في وقار وهدوء يناسبان حاله • وتذكرت سهام طريقها الأول فغشيتها كآبة عابرة وضاعفت من ساعات عملها بعزيمة ثابتة • العمل وحده يضمد جرحها ويفتح لها الأبواب • ولم تيأس من الرسو في مرفأ آمن ما دامت تهيمن على صياغة مستقبلها • كانت وما زالت مطمئنة الى جمالها الفريد ولو أن الجمال لا يعفى من عثرات الحظ ـ وهل ينسى مثل عمتها منيرة ـ وكان ينتابها حنين الى الحب والجنس أيضا ، وتسرها مداعبات المعجبين وما أكثرهم ، فتقول لنفسها أحيانا :

ـ في مكان ما يوجد رجل مناسب واسع الادراك ••

والتحمت رويدا رويدا بشبان وشابات ينتمون الى رؤيتها السياسية فأترعت حياتها بالأنس والخطر معا • وقالت لنفسها :

ـ لكل كأس عليه أن يشربها حتى الثمالة !

ولما يئس أمين من جدته كما يئس من أبيه من قبل، قرر أن يكتب كتابه • وحظيت الفكرة بارتياح أهل خطيبته فضلا عن هند رشوان نفسها • بذلك وجد الفرص للترويح عن أعصابه

وخف ضغط الحياة عليه • وكان — وابن خاله شفيق — يتابعان الاعلانات عن الوظائف المطلوبة فى البلاد العربية • وسأل ابن خاله :

— ألا يعرقل موقف العرب الأخير مساعينا ؟

فقال الآخر :

— علينا أن نجرب •

وفعلت هند رشوان مثلهما فى متابعة الاعلانات فقالت منيرة لأمين :

— ممكن أخلى لك غرفة فى شقتنا تجهز للنوم •

فتساءل :

— والمهر ؟

فلم تحر جوابا فقال :

— المهندس على أى حال مطلوب وسنعثر على حل بطريقة ما فى الخارج أو فى احدى شركات الانفتاح ••

وظن محمد أنه وجد حلا لمشكلة شفيق حينما علم بأن لأحد تجار الحديد — وهو زميل له فى الاخوانية — ابنة فى سن الزواج • وقال لشفيق :

— سيتكفل أبوها بكل شىء ، حتى المسكن ، قانعا منا بشىء رمزى •

فرحب شفيق ترحيب المستغيث ولكن أفراحه انطفأت لدى

رؤيتها ، فهى لم تكن عاطلة من الجمال فقط ولكنها كانت أيضا صورة طبق الأصل من أبيها فتراجع وهو يقول لنفسه :

ــ كأنما أتزوج من الرجل نفسه !

وتضايق أبوه وقال له :

ــ مال وأخلاق ودين ، كن من أهل الباطن !

فأشار شفيق الى أمه ألفت وقال ضاحكا :

ــ بل أكون مثلك من أهل الظاهر والباطن معا !

فتنهد محمد قائلا فى غيظ :

ــ احتار دليلى ..

وكان يتسكع فى ميدان طلعت حرب عندما دهمه منظر مثير . رأى صديقته القديمة زكية محمدين خارجة من أحد الحوانيت ، ماضية نحو سيارة شيفروليه زرقاء منتظرة . تراءيا فتوقفا عن الحركة وتهلل وجهاهما بابتسامة ، ثم تصافحا . دعته الى الركوب الى جانبها وانطلقت بالسيارة . لم تعد الطالبة المنحرفة ولكن أصبحت امرأة تخطر فى هالة ذات مغزى دسم . غانية تبرق بالجاه المستورد . لعل عريكتها قد لانت عقب انقطاع السيل العربى . وغلى ماء الشباب المحبوس فى عروقه فتبخرت التقوى ولو الى حين . قالت وهى تتجه نحو المنيل :

ــ لم تزرنى فى شقتى الجديدة !

وكشخص يقيم في جلبة محطة باب اللوق سحره الهدوء الوافد مع نسائم النيل . كما فتنته الديكورات والمرايا والتحف . وبلغت دهشته غايتها عندما رأى أم زكية ـ وقد رآها قديما وهي تسرح بالفاكهة الفاسدة ـ مقبلة لتحيته في روب مزركش وخمار أرجواني وشبشب مستورد ، بيدها مسبحة من القهرمان . وطيلة الوقت عانى من القلق كما عانى من الشهوة المضرمة . سلم بالهزيمة في اللقاء الأول إذ كانت المقاومة فوق طاقته . لم يلمس كأس الكونياك ، هذا ما استطاعه . ولما انقصفت مخالب الوحش الناشبة في صدره حل في ثقوبها الانقباض كالصديد . وسألته ضاحكة :

ـ أتذكر مشروعك القديم ؟

فأجاب بذهول بدافع الحرج :

ـ طبعا .

ولم تعلق بحرف . ترى أتريد زوجا حقا ؟ . ولأي غرض ؟ . وفي الحال تذكر سليمان بهجت ـ زوج عمته السابق ـ وزاهية ، وما يتردد على الألسنة . وغادر الشقة بقلب ثقيل وهو يرجو ألا يضطر الى العودة اليها مرة أخرى .

وكمثل حظوظهم تعثرت مفاوضات السلام حتي أوشك أن يقنط أنصارها ويشمت أعداؤها ، ثم ولدت ولادة عسيرة في كامب ديفيد ، فانبسطت بحيرات الرضا كما انفجرت براكين

الغضب • وكالعادة اجتمعت الأسرة فى حلوان عدا الأحفاد منضما اليهم رشاد الذى انتقل الى شقته الجديدة بشارع الأمين • وكان المطر يجىء قليلا ويذهب قليلا ولا ينقطع ، والسماء ملبدة بالغيوم تضفى على الضاحية جوا كالمغيب الدائم • وكان العمل قد بدأ فى الحديقة ولكنه لم يتواصل كالمتوقع بسبب غياب العمال المتكرر ، أما فى ذلك اليوم فقد توقف بسبب المطر • نظر محمد الى أرض الحديقة التى تبدت كهدف متخلف عن غارة جوية وقال :

ــ ستكون أجمل حديقة فى حلوان •

فقالت سنية بجزع :

ــ إنى أعد الساعات والدقائق ولكنى أدعو لرشاد من صميم قلبى ••

فقالت كوثر :

ــ ها هو السلام فمتى الرخاء ؟ !

فقال محمد متهكما :

ــ ما هو الا كارثة ، ولا نجاة الا بالاسلام !

فابتسمت سنية قائلة :

ــ دائما تنذروننا بالكوارث ولكن الله يخيب الظنون ••

وجعجع الرعد فارتجفت كوثر ، وقالت منيرة :

ــ أخشى أن يتعذر علينا الرجوع •

وجعلت سنية تسترق اليهم النظرات فتمتلىء بالتمجن . هزلوا وشاخوا قبل الأوان ، حتى محمد رغم الاصرار المحفور فى صفحة وجهه الذى يذكرها بحامد برهان . ماذا جرى لهم ؟ . لم ينعم أحد منهم بفرحة صافية أبدا . ولا أحد من أبنائهم . شـفيق ، كوثر ، آمين ، على ، الجميع سواء . الوحيد الذى عرف نفسه مستقراً هو رشاد ولكن بأى تضحية فادحة ؟ ! . والبيت هل يتجدد حقا ؟ ، وهذه الأرض المطينة متى تستوى حديقة غناء ؟ ، أنها فى خيالها فردوس وأما فى الواقع فأرض تخددها الحفر ، وتحدق بها أكوام الطين ، متى تنبسط ؟ .. متى تجىء المشاتل ؟ ، متى ينقطع المطر ؟ ، متى يواظب العمال ؟ . وعقب تناول الغداء انهل المطر أكثر وأرعدت السماء وهبطت السحب المعتمة فى تموجات عنيفة . قال محمد :

ـ علينا أن نذهب حال توقف المطر .

فقالت سنية :

ـ ما أجمل أن تبيتوا ليلتكم عندنا .

فسألها محمد مداعبا :

ـ ما آخر أخبار أحلامك ؟

فقالت بفتور :

ـ انى أحلم الآن وأنا يقظانة !

فقالت منيرة ضاحكة :

ــ كرامة جديدة يا ماما !

وحست سنية آخر رشفة فى فنجان القهوة ثم نادت أم سيد وأعطتها الفنجان قائلة :

ــ اقرئى هذا وأسمعينى ما يقول .

فتساءل محمد ضاحكا :

ــ أما زلت تصدقينها يا ماما ؟

ــ انها مثل أجهزة الاعلام ، ولكن لا غنى عنها !

وقربت المرأة الفنجان من عينيها الذابلتين ، وتفحصته مليا ، ثم قالت بنفس الثقة التى تتحدث بها منذ نيف ونصف قرن :

ــ أمامك سكة ليست بالقصيرة ، فيها عقبات ، ولكن انظرى (مقربة الفنجان من سنية) .. هناك تنتظرك السلامة ..

وهزم الرعد فكاد الفنجان يسقط من يد العجوز ولكن محمد ضحك سائلا :

ــ ومتى يا أم سيد تزول العقبات ؟

وكانت سنية المهدى تصعد بصرها وتصوبه ما بين السماء والحديقة فتطوعت بالاجابة قائلة :

ــ عندما يتوقف الرعد !

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٣١٠٧
الترقيم الدولى X — ٠٠٠٥ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

736
48b
05599187

الثمن ١٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه